مبارك ربيع

الطيبون

جائزة المغرب العربي للرواية
والقصة القصيرة ـ سنة 1971

مكتبة نوميديا 76
Telegram@ Numidia_Library

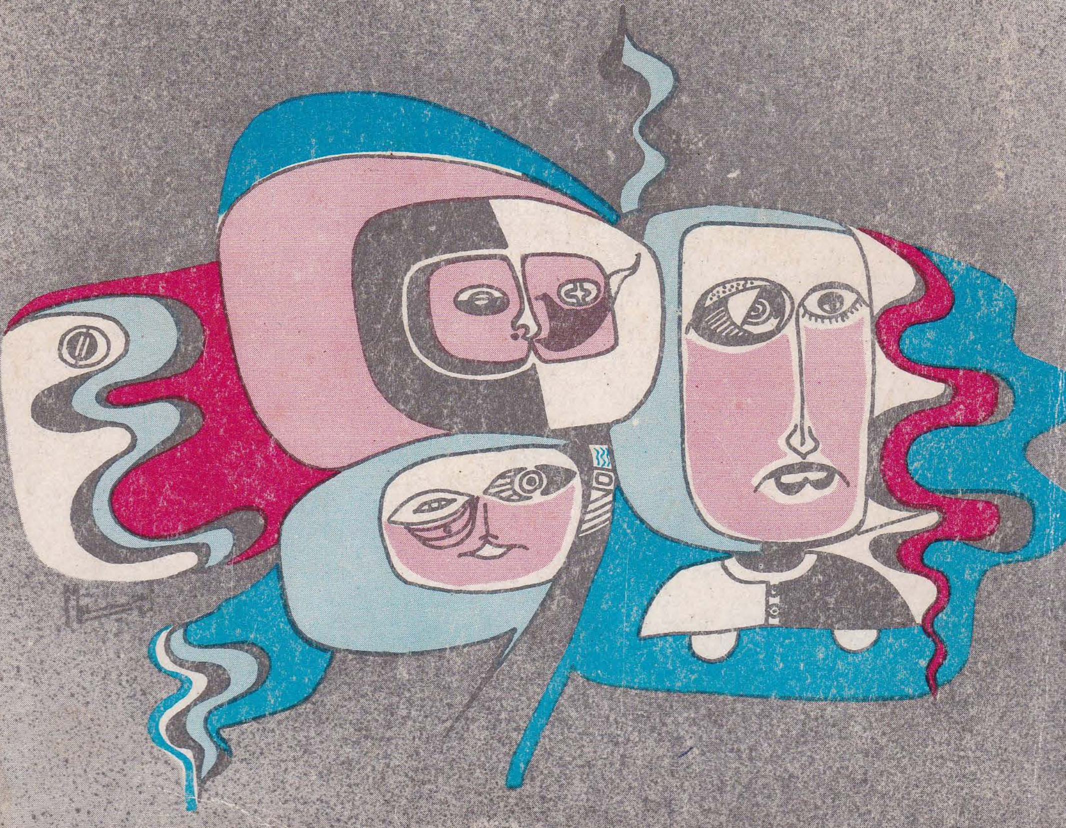

مبارك ربيع

الطيبون

(روايــة)

جائزة المغرب العربي للرواية
والقصة القصيرة ــ سنة 1971

دار الكتاب
الدار البيضاء

الطبعـــة الثانية 1980

حقوق الطبع محفوظـــة

« الطيبون » وجـائزة المغرب العربى

فازت هذه الرواية سنــة 1971 بجائزة المغرب العربــى للرواية والمجموعة القصصيــة التى نظمتها وزارة الشؤون الثقافية والاخبــار بتــونس لمكافأة احسن انتاج قصصى على مستوى المغرب العربى.

وقد انبثقت فكرة تأسيس هذه الجائزة عن توصيــات ومقررات «ملتقى القصاصين المغــاربــة» الــذى انعقــد بالحمامات فى دجنبر 1968 .

— 1 —

اب ... ابتا ... ابك ... وتتابعت الافياش بين أنامله في سرعة ولهفة ثم توقف أخيرا ، وقرأ وهو يتنفس الصعداء : ابكتيت ... وشرع ينقل على ورقته الخاصة ارقاما وأسماء من الفيش ... لم يكن يقدر ان يجد هذا الاسم ، هذا الكتاب خيل إليه منذ لحظة ان الطلبة جميعاً سيهرعون بعد المحاضرة مباشرة لطلب الكتاب ، وما كاد الاستاذ ينتهي من الدرس حتى كان قاسم يقفز نحو المكتبة وخيل إليه ان اقداما تركض وراءه ، تسابقه ، وللحظات كان يلتقط نفساً لاهثا وراءه ، يتردد بجانبه ، وهو يقلب الافياش وكان يحس نظارات نارية تلهب عنقه وأذنيه وأصابعه وهو يمرر الافياش .

والتفت اخيرا خلفه كأنما ليعلن الى الرفيق او الرفاق انتصاره بعثوره على الكتاب ، على التحفة النادرة ، واعد نغمة الانتصار يتصنع لها التواضع :

– نسخة واحدة منه ، وجدتها ...

لكن احدا لم يسمع ، لم يكن هناك غيره ، حتى ولا عامل المكتبة . ليس الا الهدوء ، واجال بصره ، فقط، توجد على احد الرفوف حيث يترك الطلبة محافظهم عادة قبل ولوج غرفة المطالعة ، محفظة نسوية قد تكون لطالبة في داخل الغرفة او هي لاحدى العاملات بالمكتبة .

وتقدم الي غرفة المطالعة يخطو في فسحتها نحو العامل الذي يقف في الطرف الاقصى يحادث بهمس شخصا جالسا الى احد المكاتب . وقدم ورقة الطلب

للعامل ، فرنا هذا للساعة . وحينئذ تنبه قاسم الى انها جاوزت منتصف النهار بعشرِ دقائق وهمهم العامل متأففاً :

– لم يبق وقت ...

وبدت الخيبة على ملامح قاسم ويده ترتد بالورقة معتذرا .

– معذرة ، ذهلت عن ذلك .

فاستدرك العامل وكأنما تأثر لذلك .

– لا بأس ، هات ، ما دامت هذه السيدة تستمر لدقائق اخرى ... ومضى يصعد السلم الحديدى وعينا قاسم ترقيان معه الدرجات ، لم يكن للهفته على الكتاب حد . كم كان الاستاذ رائعا هذا اليوم ، خيل لقاسم انه لم يره بمثل هذه الروعة فى البلاغة والاداء ، او لعل الروعة من الموضوع ذاته ، لا يدرى قاسم على التحقيق . ولكن صدى هذه الاخلاق لم يكن غريبا عنه كان ضاربا فى اعماق نفسه ، كانه علمه من قبل وعايشه . ترى هل ذلك صحيح ام هى فقط وحدة الطبيعة ووحدة التفكير ... ام ان المعرفة تذكر كما قال بعضهم ؟ لا يدرى على التحقيق . لكن صورة الحكيم الذى استشف السر ورفع له الغطاء ، ولم يعد منفعلا لضراء او سراء كانت تسكن اعماقه .

هذا الهدوء ، هذا الاتزان ، هذا الصفاء ، هو بالضبط ما يتردد فى نفسه منذ وقت لا يستطيع تحديده ، فالتوافق بين هذا الصوت المطمئن الهادى وبين ما يعتلج في نفسه لا ينسب الى الصدفة وحدها... هذا الهدوء والصفاء هو ما يبدو ان الكون باجمعه يبحث عنه وينشده ويود ان يهتدي اليه... بل انه اهتدى اليه في فترة الحكيم الرواقي فكيف تجاوزه ؟ حقا ان الانسان للغز محير . والى اين يسير الان ؟ انها لمعضلة حقا .

وسمع صوت خطوات على الدرجات الحديدية . وبدا العامل هابطا

وبيده الكتاب فتقدم قاسم نحوه واستلمه منه . ودار على عقبيه بسرعة . وهو يتصفح اوراقا عريضة متهرئة . وحين رفع نظره محاذرا ان يصطدم باحد المقاعد ، التقى بنظر السيدة التى لم ينتبه اليها طيلة الوقت . كانت بمفردها وقد وقف بجانبها عندما ناول الورقة لعامل المكتبة . بل ان الرجل كان يحادثها عند مقدمه . وتذكر كذكرى باهتة عابرة . انه لمحها تنظر اليه او على الاصح ،لمحها ترفع بصرها اليه وهو مع عامل المكتبة بجانبها. لكنه لم ينتبه ، وهذا مؤكد . لهفه على الكتاب او جنونه به طغى على كل شي ... وبدا كان المرأة كانت ترمقه منذ مدة في ابتسام وعتاب . قالت وابتسامتها تتسع وتفصح عن صفاء اللؤلؤ :

– تغيرت كثيرا يا سي قاسم .

أجاب في ارتباك :

- أنت ؟ اوه معذرة... لم ارك... لم انتبه اليك... اقصد اني كنت منشغلا كيف الحال ؟

اجابت وهي تجمع اوراقها متهيئة للخروج :

– لا بأس ، قد التهمتك الكتب .

– او اني التهمتها .

وضحكا معاً وهما يغادران المكتبة ويسيران في رواق الكلية ، عندما اردف بجد :

– في الواقع اني أقرأ هذه الكتب بعسر شديد ، فلا ازال أعاني من ضعف اللغات الاجنبية ، ولست محظوظا مثلك .

وتأوهت :

– مثلي ؟

وبدت له مسحة كآبة تخيم على ملامحها . كانت هنية سمراء طويلة القامة ، تميل إلى النحافة ، ترتدى معطفا ابيض ناصعا ، يضاعف من اناقتها. تخطو في تؤدة لا تخلو من كبرياء ، ولم يكن يبدو في مظهرها كله من مرح سوى شعرها الطويل المنسدل على كتفيها .

قال محولا مجرى الحديث :

– لنترك هذا ، كيف حال العمل ؟

– يسير ...

ورد بسرعة مبتسما :

– طبعا ، معك لا بد ان يسير .

وردت عليه بابتسامة فيها عتاب على مجاملته فاردف :

– لا اجاملك مطلقا ، أقسم لك . ولو عرفتني جيدا،لادركت انني فاشل في المجاملات .

وزمت شفتيها قائلة :

– يجوز . اذكر انك التحقت بالجامعة بعد ايام فقط من تسلمي ادارة المدرسة . واذكر ان المديرة التي كانت قبلي اذ ذاك ، تحفظت بشانك بعض الشيء وهي تسلمني مقاليد الاذارة... اظنها قالت انك عنيد اوشيئا اخرمن هذا القبيل .

ورد وقد اصبحا على الدرجات الخارجية لباب الكلية :

– ربما كنت كذلك في نظرالبعض،وحتى في نظر نفسي احيانا... ولكن هناك أشياء لا استسيغها من سلوك بعض الناس ، خذي مثلا تلك المديرة بالذات

التي خلفتها ، كانت لطيفة مهذبة لكن سلوكها لم يكن يخلو من رعونة احيانا ، سيما تجاه المعلمات بالذات . وهي مع الرجال المعلمين الطف بكثير ، وهذا لا يليق برئيس مؤسسة أيا كان جنسه... ثم هي كثيرا ما كانت تصرح بانها لا تعرف من دنياها الا مجلات الازياء وما اليها... وهذا في رأيي عيب اساسي فيمن يشرف على مؤسسة تربوية... هذا الاشراف او التسيير هو عمل تربوي قبل كل شي ويتطلب من صاحبه ثقافة متينة معينة ، لا تقدمها مجلات الموضة والسينما .

وامنت هنية على كلامه :

- هذا صحيح .

واستأنف مبررا مجاملته الاولى لها :

- من هنا ترين اني لم اكن مجاملا لك ، فانت فى الواقع مثقفة وتسعين وراء الكتب... بل تسافرين وتقطعين المسافات في سبيلها...

وقاطعته وابتسامة خفيفة على ثغرها :

- منطق سليم يا سيدي ...

وتعمدت ان تظهر لهجة استخفاف محببة في نهاية جملتها ، ثم اردفت في لهجة من يغير موضوع الحديث .

- لنتحدث عنك الان ... عندما تسلمت ادارة المدرسة بايام ادركت انك معلم مخلص ، ومحبوب عند تلاميذك، لذا فكرت عندما قدمت طلب المنحة الجامعية ، في ان اعترض سبيلك واحتفظ بك، لكني لم اسمح لنفسي بذلك ، سيما وامنيتي كانت ايضا ، ان تتاح لي فرصة اتمام تعليمي في الجامعة .

قال في مرح معلقا على كلامها :

– لعلك ادركت ان التحاقي بالجامعة،خير طريقة تتخلصين بها من عنيد مثلي .

وضحكت من اعماقها ضحكة مقتبضة وردت :

– لم يبد لي منك عناد ، على كل حال ، لم تقض بالمدرسة منذ توليت ادارتها ، الا اسبوعا او اثنين .

وكأنما كانت تفكر في اضافة شيء عندما سألها :

– هل من جديد في المدرسة ؟

اجابت وهي تهز كتفيها هزا خفيفا :

– ابدا ، لا جديد فيها عدا الحديقة الصغيرة التي انشئت لتفصل جناح البنين عن البنات .

وتساءل من جديد :

– واني أتعجب كيف ان ادارة مدرسة لا تحوز كل اهتمامك ؟

وردت في اسى ظاهر :

– أف ، لولا ظروفي الخاصة لتوقفت عن الشغل نهائيا وانقطعت الى الدرس . مضت الان ثلاث سنوات منذ غادرتنا... لقد تغيرت بالفعل أشياء كثيرة . وجو الاسرة الذي كنت تعهده ، بين المعلمين والمعلمات ، لم يعد منه شيء... لا أدري ما الذي حدث ... ؟ لقد بدا وكأن كل واحد منهم يطارد شيئا بمفرده وفي اتجاه مخالف لسواه... وبدا الأسف على قاسم ايضا :

– هذا عجيب حقا . لا ازال اذكر تلك الحفلات الدورية الرائعة التي كنا نقيمها في دور بعضنا او في المدرسة عقب الدروس ، وجو المرح ... ثم حفلات نهاية السنة... حقا انه لعجيب .

وعقبت على كلامه :

– كل ذلك تغير الان ، واصبح كل واحد جزيرة منفصلة حتى ليصعب علي في كثير من الأحيان ان انظم اجتماعا يضم الكل .

ونزلا الدرجات الثلاث وخطوا في تؤدة مبتعدين عن الباب الحديدي الكبير وسألها :

–.ما مشاريعك الان ؟

واجابت في لهجة اللا مبالى :

– لا شي . احاول ان اشغل نفسى بتتبع دروس الكلية عن بعد ، ازور العاصمة كل ثلاثاء : اقضي بعض الوقت في المكتبة ،واحضربعض المحاضرات... واستعير كراريس من الطلاب والطالبات،لأطلع على ما فاتني ... لكنني اشغل نفسي فقط . اما النجاح والدراسة الجدية فلا امل لي فيها .

ورد :

– لا ارى لمثلك ان ييأس .

اجابت وهي ترنو الى صفحة السماء الممتدة تجاه البحر،بحيث صدرت كلماتها في هدوء طبيعي ، لم يلحظ معه انفعالاتها :

– يأس ، أمل ، لم يعد لذلك من معنى لدي .

وعندما عادت ببصرها من سرحة الأفق ، تبين بوضوح معالم حزن عميق،تحاول اخفاءه . لم يتغير منها شيء منذ عرفها ،ربيبة هيبة ووقار ، وتلك سمة المهنة كما يعتقد . لكن مسحة الحزن لا تزول عنها .

قالت وهي تتطلع مرة اخرى الى السماء في نظرة خاطفة :

– لعلي اخرتك ؟

اجاب وهو يضغط المجلد العريض على صدره :

– ابدا ، فرصة طيبة هذه ... ونحن اصدقاء قدامى قبل كل شي... بودي لو استدعيك للغذاء... لكن ما تعده والدتي لا يرضيني، فضلا عن أنه بسيط .

وابتسمت بعمق امحى معه آخر اثر للحزن على محياها ، او هكذا خيل اليه . وتلألأت اسنانها في صفاء قائلة وهي ما تزال تغالب ابتسامتها :

– لا تزعج نفسك بهذه الأمور... انت الان طالب بحق... واذا لم يكن لديك مانع ، فاني ادعوك الى مائدتي ، في مطعم مناسب عثرت عليه .

ثم استدركت قبل ان يجد الكلمات :

– لا تقل اني كريمة معك ، فقد استغلك لبعض الخدمة .

ازداد ضغطه على الكتاب ، وكانما فوجىء بالعرض ،لم يكن هو جادا في دعو تها . فهل يرفض ؟ ما معنى ذلك ؟ واجاب :

– لا مانع ! لامانع مطلقا... لكن...

وخطت امامه :

– اذن لنمض .

وصعد الى جانبها في السيارة . الكتاب مازال الى صدره . وسادت فترة صمت وهما ينحدران نحو وسط المدينة ، واتاح له انهماكها في القيادة ، أن يتأمل لطافة يديها تتحركان على المقود .

– انت تسوقين بكيفية جيدة . وهمهمت بينما اردف :

– يقولون انكن تضاعفن الحوادث . ردت مبتسمة وهي تتوقف امام اشارة حمراء :

– ما اكثر ما يقولون عنا .

واردفت تساله :

– مع من تعيش هنا ؟

– والدتي ، واخ اصغر في الدراسة الثانوية ، اسرة محدودة جدا .

ودلفا الى المطعم . كان المكان جميلا هادئا فوق ربوة صخرية ، مشرفا على مشهد البحر وهو يحتضن نهر بو رقراق . وعلى اقدام الربوة الصخرية تتكسر الأمواج في صخب ، لا ينفذ منه الا هدير واهن ، من خلال الواجهة الزجاجية المغلقة للمطعم... وعلى مد الأفق ، زرقة صافية تخالج سماءها نقط بيضاء ، لطيور البحر المتحركة في كل اتجاه . وعلى مدى ابعد ، بدت معالم مدينة سلا على الضفة الأخرى للنهر ، ورمال الشاطىء النهرى الداكنة، تموج بالطيور البيضاء الرابضة على اديمها .

قالت وهما على المائدة :

– كيف وجدت الإقامة هنا ؟

ورد :

– الرباط صعبة . والإقامة غير مريحة اطلاقا ، لكنني اعتدت . في الأول كان الأمر اشق . عانيت كثيرا من غربتي ، لكني الفت غربتي ذاتها...

وتوقف قليلا ثم تساءل :

– وانت اتراك ستالفين هذا الذهاب والإياب ؟

اجابت وهي تضع الشوكة :

– اني اشغل نفسي فقط ، كما قلت لك ، ولا اطمع في النجاح... زوجي لا يمكنه نقل تجارته الى العاصمة ، ومتاعب الإدارة بالنسبة لي ، وما تتطلبه الدروس من جهد... كل ذلك لا يترك لي فرصة الطموح الجاد لحياة الجامعة .

وذهب به التفكير مذاهب عدة ، ولعله كان يتهيأ لوضع سؤال محدد احتار في صياغته عندما اردفت :

– بالمناسبة ، كما قلت لك، فاني ساطلب مساعدتك، وعسى ألا تثقل عليك...

رد وقد اخرجته من عالمه :

– بالتاكيد... بكل سرور .

واستانفت ·

– اود ، لو امكنك ان تحضر عني بعض المحاضرات خلال الأسبوع ، واحدة او اثنتين اعتبر هما هامتين... و لا اظنك تضيع و قتك ، لأن مادتهما فلسفية... اني اغريك ، ألا ترى اني نجحت ؟

اتمت جملتها في مرح ظاهر . وقال :

– هذا يسير واغراؤك ناجح ، وربما استطعت ان احضر لك اشياء اخرى .

شكرته وهي تنظر الى ساعتها ثم قالت :

– علي ان احضر درسا في الثانية بالضبط .

كان ما يزال يقشر برتقالة، بينما سرحت هي بنظرها نحو الأفق ، واتيح له ان يتاملها ، من جديد : في العقد الثالث خمرية اللون... وفاجاته :

– ما رأيك ، اليست البقعة جميلة ؟

رد مؤكدا :

– بل اجمل مما قدرت ... تصوري اني لم اعتقد ان في العاصمة بقعة بهذا الجمال والهدوء . وابتسمت :

ـ لا تكن سيء الظن بمدينتك .

ورد مبتسما :

ـ ساتفاءل منذ اليوم .

انزلته في منتصف طريقها الى الكلية ، بعد مغادرة المطعم ، فاتجه الى بيته غربي المدينة مسرعا .

— 2 —

ما ان فتحت والدته الباب حتى تناهى اليه سعال متقطع من الغرفة القصوى فنظر اليها قاسم فى تساؤل . قالت وهي تغلق الباب :

— عندنا زائر يا قاسم .

— من ؟

تمتمت له بهمس فسار وراءها الى الغرفة :

ـ عمي ... آه مرحبا ، اهلا وسهلا .

وقبل ان يحاول الشيخ القيام بصعوبة ،تداركه قاسم ، وعانقه قبل ان ينهض :

— لا تتعب يا عم ، استرح... كيف الحال ؟

هيكل طفل، وملامح شيخ طاعن في السن . كذلك تراءى له عمه مطويا على نفسه...

اجاب الشيخ وعيناه الرطبتان تحدقان في قاسم ، تحت حاجبين كثيفين اشيبين :

— ما شاء الله... كبرت يا قاسم ، كبرت والله ، انت رجل .

لم يتضايق قاسم كثيرا وان كانت هذه اللهجة بالذات، طالما قد اهاجته . لهجة من لا يلتفتون الى صيرورة الحياة وتطورها . كثير من معارفه اعادوا على سمعه انه قد كبر ... انه صار رجلا ، كانما كان من المفروض ان يستمر

صغيرا، ذلك الطفل الذي عرفوه عندما فارق القرية .لكنهم لا ينتبهون الى انهم، قد تقدموا هم ايضا، في الزمن . ومن يدري ؟ فقد يكـون سؤالهم الإستنكاري لتقدمه في السن، ناتجـا عن رغبة لا شعورية، تدفعهم الى انكار تقدمهم فيه ايضا ، ايكون هذا صحيحا ؟

وسعل الشيخ سعالا متواصلا ، واهنا ، وعاد قاسم يسأل :

ـ اهلا وسهلا ، كيف الحال يا عم ؟

وجمع الشيخ انفاسه الموزعة ، ومر بيده على لحيته الكثة، يمسح رشات تناثرت عليها :

ـ ما شاء الله يا بني . كبرت ونسيت البلد .

وعاد يسعل من جديد .

ـ انت مريض يا عم ؟

وعدل له وسادتين عاليتين وهو يرد :

ـ استرح ، هكذا يا عم .

كانت والدته ما تزال واقفة، تتامل اول لقاء لابنها بعمه، وكانما اطمأنت الى التعارف الذي حصل بينهما ، فتحركت نحو المطبخ .

عاد الشيخ يحدق في ابن اخيه من جديد :

ـ ما شاء الله . كاني امام المرحوم اخي ، وجها لوجه . الله ، الله .

وتذكر قاسم صورة قديمة لوالده كثيرا ماتملاها . وعبرت خاطره من وراء السنين . كلمات امه : انت شبه المرحوم يا قاسم. لك عم يا قاسم.لا يشبه والدك، كانا شقيقين، والدك اصغرهما ؛ وكان وريث الجد في الصحة والنضارة وسلامة القلب اما اخوه ، عمك...

ووجد قاسم نفسه يتفرس في الهيكل الواهن المنكمش جنبه .لولا لحيته لو حلق ، لما بقي من وجهه شيء...عمك يا قاسم فلاح كبير ، يملك قرية بكاملها لكنه قاسي لا يرحم... وعاد الشيخ يقول :

– حرام يا بني يا... قاسم... الحر لا ينسى اهله وبلده... لكنك لست المسؤول عن ذلك . الكبار هم المسؤولون . والدتك سبب ذلك ، وهذا ما قلت لها منذ ساعة ، هذا حرام ، كفر يا بني... يجب ان تعرف اهلك .

وتوقف يستريح ، قليلا ثم استانف في استنكار :

– انا عمك، اقرب الناس اليك، ولا تعرفني ولا أعرفك... اعوذ بالله... واولادي لا تعرفهم ولا يعرفونك...

وتوقف مرة اخرى والأسى واضح على محياه ، واستأنف وكأنه يعتصر الأحداث من ذاته الواهنة :

– لم يفرق بيني، وبين المرحوم اخي، الاالممات. كنا ذاتا واحدة، كما تركنا والدي رحمه الله . تزوجنا وانجبنا، ولم نفترق حتى فرقنا الموت ... امر الله.

واخذه السعال من جديد، ومضت فترة قبل ان يستعيد انفاسه ويستأنف :

– كيف هذا ؟ عشرون عاما او اكثر، لم ارك ؟ كان من الممكن لو قدر ذلك ، ان اصادفك او تصادفني ، ولا نتعرف على بعضنا... هذا كفر .

وتوقف قليلا ثم تابع :

– خرجت بك فاطمة ، امك ، وكنت ترضع ... آه ... يا ايام ... كم انتظرت ان تعود بك يوما ... خرجت ليلا من القرية ... مازلت اذكر ... وكم سألت وحاولت ... مشيئة الله يا بني ، قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا .

واحتقن وجه الشيخ ، وحرك يديه الى كل ناحية يبحث عن شي ما ، ورفع بخاخة صغيرة مطاطية يلمع في رأسها عنق زجاجي معقوف ، به سائل

اصفر، وبخ في حلقه عدة بخات... وبدا انه يقاوم نوبة سعال، وازمة تنفس.

وانبعثت في قاسم كلمات امه تعبر خاطره وهو يتابع حركات الشيخ : سأل عنا كثيرا في اول الأمر... بل انه اتصل بي في المدينة . لم تكن في الرضاع بل فطمتك بكثير... واخوك ابراهيم اذ ذاك جنين في بطني . نعم اذكر جيدا كل ذلك يا بني... وعمك نفسه، عندما زارني الى المدينة، اشار بأصبعه الى بطني مغتاظا ، وقال لي انه لا يريد ان يراك تعيش غريبا، في مدينةلا حدود لها... بل قال اكثر من ذلك ، اني اذكر جيدا ولا يستطيع عمك ان ينكر انني كنت اذ ذاك حاملا... وحاول ارجاعي الى القرية بعد حواليثلاثة اشهر او اربعة ، منذ وفاة والدك ... اغتاظ عمك مني، لكنه كان قد اغاظني من قبل، بصورة اشد ، ولم اره بعد ذلك .

وحرك قاسم رأسه كانه يطمئن صوت والدته القديم...كم كررت عليه ذلك فعندما كانت تحدثه منذ عقل ، كان الحديث يعود دائما الىهذا الموضوع ، بنفس الأسلوب وبنفس الطريقة . عمك مريض يا قاسم بضيقة خطيرة، لا تفارقه ابدا، وستؤدي به ان كان لا يزال حيا... انها لعنة وعقاب نزل به . اقسم لك يابني ... وقع ذلك منذ حرث ارض المجدوبة... لقد ماتت المسكينة بعد ذلك بشهور، أسى على ارضها التي نزعها منها عمك ، وتشرد اطفالها... كان عمك يستغل ارضها نظير لقمة تصيبها في داره... دارنا جميعا... هي واطفالها الصغار ثم وقع النزاع .لا أدري لماذا ؟ربما كانت احدى زوجات عمك هي السبب. فطردها وسلب ارضها... واصابته الضيقة بعد ذلك... اصابته ولم يمض يومان حتى اصبح عمك لا يكاد يتنفس الهواء . حسرت المجدوبة رأسهاومرغته في التراب ودعت عليه ، دعوة مظلوم... وماتت بعد ذلك .... الكل يعرف ان دعوتها نزلت به لكنهم يخافونه جميعا .

ــ ألا تزور الطبيب يا عم ؟

وابتسم الشيخ في مرارة :

ـ الطبيب هو الله يا بني... هذا لا دواء له .

ومسح لحيته وهو يكمل حديثه :

ـ الصحة يا بني كالبيضة المشقوقة لا تنجبر.

وكأنما أراد ان يغير مجرى الحديث :

ـ كيف الأرض يا عم ؟

وابتسم الشيخ وهو يرد :

ـ المحصول يتناقص سنة بعد سنة . الله يلطف بعباده،لكن الرزق موفور .

ان شاء الله تزورنا ، وتعرف الأرض والأولاد .

ورد قاسم ، وهو ساهم في حكايات قديمة، من حديث والدته :

ـ ان شاء الله ياعم .

ليست حكاية المجذوبة،الا واحدة من مثيلاتها في حياة عمك يا بني،مع الأرض . كان ابوك رجل خير ، خالف عمك لكنه كان الأصغر . وصفعه عمك، عندما رفع عليه صوته،واقسم والدك ألا يستمر شريكا لأخيه،وطالب بحقه،واشتد الخصام بينهما،فتدخل رجال القرية واصلحوا ... وكانت قسمة كما ارادها عمك ، تخلى فيها عما لا يريد ، وتمسك بما اراد ، وبوفاة ، والدك ، استولى على كل شيء...

وانتبه قاسم على صوت عمه المتأسي :

ـ كم كان بودي ان اريك ، ان اجنبك العوز ، وظللت لذلك ابعث ببعض المحصول لوالدتك ،وانتما في الدار البيضاء لكن وقعت اشياء واشياء...

محصول ؟ آه له ان يقول هذا يابني،لكن لأي غرض كان يبعث لي بذلك

المحصول ؟ لو تعلم يا بني ، واي محصول ؟ كان زهيدا جدا... حاز ارض والدك كلها ، وبعث لي بحفنة حب...

ولولا أني تدبرت، امري بتركة مال اشتريت بها المسكن لولا حذقي ودأبي بالليل والنهار... على كل ، الحمد لله .

وتملى الشيخ ابن اخيه ، وكانه يعود بالأحداث الى الوراء :

– كانت قد مضت سنتان تقريبا على وفاة والدك، عندما خرجت بك امك من القرية .

وضجت في ذهن قاسم ذكرى صوت امه بعنف :

– بل لم يكن قد مضى اكثر من شهر، او شهرين، منذ مات والدك. وكنت حبلى يا براهيم...

واستمر حديث الشيخ واهنا :

– لحقت بكما، وجدت والدتك قد اقتنت مسكنا متداعيا اجرت غرفتين منه وشغلت الأخرى ... مضى الان كل شي ، لكني لم أكن راضيا على والدتك... وجدتها قد تغيرت شيئا ما ، ضمرت جدا حزامها كان يبدو محزوما على عود ، وانت ، وجدتك هزيلا... واشرت اليها باصبعي هذا... نعم لا ازال اذكر اشرت اليها .

فلت : « لا اريد لابن اخي هذه الحال ، اما انت فلا شغل لي بك... »

وانبعث صوت امه قويا في نفسه محتجا :

– بل اشار الى بطني المنتفخة، واكد لي انه لا يريد لك ولا للمولود المنتظر

– أخيك إبراهيم – ان تعيشا على هذه الحال .

واستمر الشيخ كلامه :

– رفضت والدتك ان تعود... ولم استطع بعد ذلك ان اراكما .

وتوقف قليلا ، وهو يحدق في وجه قاسم ، كانما يحدثه بيسر :

– انت الان رجل ، يمكنك ان تفهم وتحكم . كانت لي والدة ايضا . رحمها الله . وفهمت امور النساء ، في سن قبل سنك الان ، على كل حال . سنستعيد باقي الأرض بحول الله . وقسيمة والدك ، لا تزال تحت يدي .

وابتسم قاسم في مجاملة ظاهرة :

– الخير ، خيرك يا عم .

وتفرس الشيخ طويلا في قاسم مبتسما وقال :

– والدتك غير مرتاحة هنا ، فيما يظهر ، ربما كانت تفضل البقاء في الدار البيضاء .

ورد قاسم موافقا :

– نعم يا عم ، وانا نفسي لم استانس بالعاصمة ، الا منذ قريب ... ولكن لاخيار لي... كان لا بد ان اقسو على نفسي ، لأغادر مدينة بها اصدقائي ، ومعارفي.

وتمتم الشيخ كانه يحدث نفسه :

– القسوة ... نعم يجب ان يكون المرء ، قاسيا في كثير من الأحيان .

عمك يا بني ما رأيت اقسى من قلبه... مرة واحدة فقط ، رأيته يتألم ، بل ذهب الى حد البكاء ، كانت الأولى والأخيرة ، وذلك عندما وقعت لنا المحنة . ابوك كان يخالف عمك في الطبع ، بل يخالف كل الفلاحين ، ورجال القرية... كان عطوفا ودودا ... وقع ذلك بعد اقتسام ابيك وعمك ، تلك القسمة ، باقل من سنة . لم تكن في بطني بعد ، واذكر تلك الخيول المطهمة اللامعة العتاد ، والسيارة التي لم نكن الفناها في القرية بعد ، والحاكم الفرنساوي الذي جاء

صحبة شيخ البلد، والقائد . وجمعوا القرية وحدثوهم عن ارض القرية حديثا لم يرتح اليه الرجال . كان المترجم يقول : ان «المخزن» ، يريد ان ينشيء معملا على النهر ، ويحتاج ذلك الى اراضي، لبناء بيوت وحدائق ، واشياء كثيرة لفرنسا ... وعرفنا ان نتيجة هذا، ان يفقد رجال القرية اكثر اراضيهم ، والجزء الأكبر منها، كان في ملك اسرتنا ، وفي ملك ابيك خاصة... ورفض الرجال، اذكر جيدا ان والدك المرحوم، قال في وجه الحاكم والقائد: « هذه حيلة لسلب ارضنا » والتفت الي الرجال، وقال لهم : ان سكتم سيكون حالكم كحال اولاد صامد واولاد حمو وكل القبائل... وقبض على ابيك، وعمك وبعض رجال القرية... ثم اطلقوهم بعد التعذيب وعادت الخيول مرة اخرى، والسيارة... ونادى المترجم على بعض الأسماء، من بين جمع القرية ، فكانوا يغمسون لكل واحد اصبعه في المداد ، يحطونها على الورق ، ويقولون لكل واحد منهم : ستقبض الثمن غدا ... ورفض ابوك ان يغمس اصبعه في المداد، وطلب قلما... وتشاوروا ثم اعطوه قلما ، فرفض ان يوقع، لأن الورقة كانت مكتوبة بالفرنسي، وهو لا يعرفه ، ابوك كان كان يقرأ القرآن ، الله يرحمه ، وبعد ذلك احاط به العساكر، وقيدوه وغمسوا اصبعه في المداد، وحطوها على الورقة، ثم حملوه الى السجن. وفي غيبته احاطت الاسلاك بكل الاراضي وعاد بي عمك الى البيت وكان يبكي . لأول مرة رأيته يبكي .

وعاد الشيخ يقول :

– لا بد ان تزور قريتك وارضك .

وتوقف قليلا ثم اتم :

– اصبحت الان رجلا، وانت تتحمل ربط الصلة بنا من جديد... حتى وان لم ترض والدتك عن زيارتنا و...

وتوقف وهو يتفرس جيدا في وجهقاسم، كانما يريد انيعرفمسبقا، أثر ما سيقول له في نفسه ، وقال في لهجة خافتة :

– لك اخ ، اظن اسمه ابراهيم، كما قالت والدتك... اني لم اره بعد .

ورد قاسم ، كانه غير مهتم :

– نعم،اخي ابراهيم . لعله لا زال في المدرسة . وهمهم الشيخ بينه وبين نفسه ، تم عاد يسأل :

– كم يكون عمره ؟

ورد قاسم بلهجته الأولى،مع احساس باطني بالحرج ، حاول ان يتغلب عليه .

– عمره ... لا ادري ... نحن متقاربان .

وطرقت عينا الشيخ بسرعة،وقد شع منهما لمعان غريب ، وخيل لقاسم انه يبتسم ، ابتسامة خفيفة ماكرة . وعاد الشيخ يقول :

– يكون قد ازداد ، بعد وفاة المرحوم اخي ، بعدة سنوات...

وغير من لهجته مستانفا :

– هذا غير مهم... انت رجل كما قلت لك... وتفهم... قلت ان ابراهيم يدرس .

ورد قاسم، معتزما الا ييسر لعمه ان يفهم :

– في الباكالوريا .

ولم يبد على الشيخ انه فهم شيئا ، والا لعاد يسال من جديد . وعادت نوبة الربو شديدة ملحة ، فسعل الشيخ ويداه تبحثان عن البخاخة .

وانبعثت مشاهد قديمة من اعماق قاسم ، وهو يتابع حركات الشيخ...

– لا تنسي يا اماه انني الان في الجامعة ، وقد سبق لي ان انقطعت قبل ذلك

عشرة سنو ات اشتغلت فيها مدرسا ابتدائيا ... فلا يعقل ان يكون عمري ثمان عشرة كما تدعين... مجموع سنوات العمل ، والدراسة ، لا يسمح بهذا !

وتدور عينا الوالدة فيمحجريهما ، بحيرة ، تطلبان عونا تتشبثان به ، ويخيل لقاسم ان زرقة عينيها تخالطهـا حمرة... ووجهها الوسيم النحيف ، يشي بانفعالات عميقة مكبوتة لا حد لعنفها ، وتقول وهي تنظر اليه :

– اذا كنت محقا ... وانت غير محق ، فيكون عمر اخيك ، يجاوز العشرين.

وتنظر اليه في شبه استعطاف ، وباطنها ينتحب ، فيخفض بصره عنها ، ويتناول كتابا ، ويقول مغيرا موضوع الحديث :

– لا علينا... ربما كنت محقة... اعطني شايا... ولا تنصرف بسرعة ، بل تظل واقفة برهة تنظر اليه في انكسار ، كانها لا تصدق انه اقتنع بهذه السرعة ... ويتجاهل هو ذلك منشغلا بالقراءة ، بينما تجر هي نفسها جرا ، لإعداد ما طلب.

وعندما تعود بالشاي ، او القهوة ، يقف قاسم متحفزا للخروج ، فتساله :

– الا تشرب ؟

– بلى ، ولكن بسرعة ، عندي موعد .

وتصب له قائلة :

– لم تخبرني بذلك والا كنت اسرعت اكثر ، في احضارها...

ويقاطعها :

– لا عليك يا اماه .

وينهمك في اعداد نفسه للخروج ، وهي تنظر اليه جامدة . لقد اصبح يعرف سلوكها. فما جلست معه منذ رشد ، الا وكانت في ذهنها محاولة لفتح حديث السن هذا . ومناسبات الإمتحانات بالنسبة لأخيه ، ومايطلب من اوراق

الأسرة ، كلها فرص جيدة لإثارة هذا الحديث... وبدأ قاسم يضيق بمحاولاتها للتقريب بين سنه وسن اخيه . من السخافة ان تحاول تقليص فارق يقارب العشر سنوات... والحديث معها،محض فراغ في هذا الموضوع... وما الفائدة من كل ذلك ؟

ويتجرع كاسه في جرعات متتالية . وتحذره متقربة اليه :

– خذ حذرك ، انه ساخن...

لكنه يكون اذ ذاك قد اعاد الكأس فارغة الى الصينية ،فتقف بجانبه، تنفض كتفيه ، وتتقدمه بعد ذلك الى الباب ، وتفتح له :

– احفظ نفسك يا بني ، الله يحفظك...

وقبل ان يخطو نحو الباب ، تضيقه دونه ، وتقول وكانها تهمس له في محاولة اخيرة لإقناعه .

– انت مخطيء في حسابك يا بني ، نحن النساء ادرى بهذه الأمور . تواريخ المواليد لا تنسى لنا ابدا... ان الصدمة التي اصابتني بوفاة المرحوم والدك، ارقدت الجنين في بطني ، مدة لا اعلم كم طالت ، هي الفارق بينك وبين ابراهيم .

وينحيها برفق عن الباب ، وهو يبتسم لها :

– ممكن... اعرف... لا تتعبي نفسك ، .

ويقبل جبينها ويخرج . ويتخيلها تتسمع اقدامه الى ان تغيب عن سمعها . ويتخيلها تبكي ،وتخرج عن اطار التجلد الذي تتكلفه امامه.سلوكها شاهد على مقدار قلقها ، من اجل اثبات ماضيها بالصورة التي تريد ، ليتها تكف عن هذه المحاولات السخيفة .

ومسح الشيخ لحيته من رشات العطاس وعاد يخاطب ابن اخيه :

ـ اشياء واشياء، حدثت يا بني لكننا لا ننساها . عندما اطلقوا سراحنا كانت الأسلاك قد احاطت بكل اراضي القرية الا قليلا . كم نصحت اذ ذاك والدك ان يتريث، لكنه رفض، فاكتسحوا كل ارضه وانا ايضا اغتصبوا اجود اراضي... لكن المرحوم لم يتريث .

وتوقف ثم قال :

ـ لعل والدتك حدثتك بذلك .

ويتناهى الى قاسم صوت امه :

ـ عمك كان ماكرا . اغتصبوا ارضه حقاً ، لكنه تآمر مع القائد على اراضي الاخرين . اخذ الفرنسيون ارضه... وساعدوه على اغتصاب ما تبقى من اراضي الفلاحين . وبذلك اصبح عنده اكثر مما كان يملك . اما والدك فكان من طينة اخرى ، فقيها مستقيما... لم يتخذ خطة ماكرة، فسجنوه، ولم يكتفوا بذلك وقتلوه .

ويندهش قاسم . لم يسمع قط بان اباه قد قتل ، فيضع الكراسة من يده، وينصرف الى امه، متسائلا في دهشة تناسب السنة العاشرة من عمره اذ ذاك ،

ـ اقتل ؟ الم يمت كغيره من الناس ؟

ولماذا لم تخبيريني من قبل ؟

وتمسح عينيها وهي تجيب :

ـ لماذا لم اخبرك قبل الان ؟ وما الفائدة من معرفة ذلك ؟

وعاد ابن العاشرة يسال :

ـ كيف قتل ؟

وتتم :

– سجنوه وعندما اطلقوه ، ووجد ارضه نزعت منه وحصنت بالأسلاك ، حمل بندقيته ليلا ، وتسلل دون علم احد ، يتربص بالحاكم... وربما ابصره البعض دون ان يعلم بذلك ، فلم ينتبه الا والعساكر تحيط به . فقبضوا عليه... ولم يطلقوه الا بعد شهور ... وكان جسمه... ما الفائدة من الوصف ؟ ...

انه لم يعش الا اياما قليلة بعد ذلك ، كانما اطلقوه فقط ليموت في داره.

وتدمع عيناها ، وتغيم عينا الطفل . وعندما تنتبه الأم الى نفسها تستجمع قواها ، وتقول لابنها مواسية :

– لا عليك... ما كان يجب ان تعرف هذه الهموم ، منذ الان .

وتقوم بعد ذلك ، وتضع الكراسة من جديد ، بين يدي الطفل وتامره بان يقرأ ، بينما تخرج هي متظاهرة بالتوجه الى شغل ما .

دخلت الأم فاطمة بالصينية ، فانقطع الحديث بين قاسم وعمه فترة . كانت نحيفة مديدة القامة ، تظلل وجهها غمامة انكسار . تخطو في حذر كانما تتوقع العثر...

جلست متربعة قبالتهما ، على لبدة صوفية ثخينة ، وبدأت تصب الشاي ، واعتدل الشيخ قليلا في جلسته ، وتناول الكاس . وخيم الصمت فترة فاجأ قاسم نفسه اثناءها متسائلا :

– فيم يفكر كل منا ؟

اما هو ، فكان يفكر فيما يمكن ان يجول في خاطري عمه وامه . ووجد نفسه يرقبهما : والدته ترشف مرة بعد مرة ، محدقة في الكؤوس والبراد ، منشغلة بجمع اذيال دفينتها حينا بعد حين ، او مظهرة اهتماما لا معنى له بنقوش الصينية تتقراها باصابعها ، وقد بدت على بقية من جمال ، يشي بروعة شباب قديم لا تخفي معالمه تجاعيد السنين . كم قاست في حياتها ، وكم تعبت !

ماذا تنتظر بهذا الهدوء ؟ موتة طيبة وخاتمة ومغفرة ، كانما في الموت درجات ؟ ! والشيخ يتأمل كأسه بعد ان ابعدها عن عينيه قليلا...

وافاقت الوالدة من شرودها ، على صوت الشيخ :

– هذا الكأس، كان يجب ان يشرب بين الخضرة، والسنابل ترتمي على حد البصر .

ورد قاسم :

– القرية جميلة ، في هذا الفصل يا عم .

وتابع الشيخ تأملاته ، وهو ينظر الى فاطمة :

– اني أتضايق من حياة الجدران ، وأعجب لمن يفضل حياة المدينة على الريف .

ورمشت عينا فاطمة بسرعة ، وخيل لقاسم انه يرى على سحنتها معالم هلع ، كأنما فوجئت بجريمة تقترفها .

ورد قاسم :

– لو كانت حياة البادية هينة ، ما هجرها احد .

وتحركت الوالدة قائلة ، وقد استعادت بعض هدوئها :

– باديتنا لا ترحم الضعيف ، ومن لا سند له . في المدينة يجاهد الناس من اجل العيش فقط ، اما هناك . فانت تجاهد من اجل الأرض ، والمحراث والبقرة ، واشياء اخرى كثيرة... هذا صعب ، واتمت كلامها مؤكدة :

– جد صعب على الضعفاء .

وضع الشيخ كأسه جانبا . كان يتابع حركاتها . لقد اهاجت فيه احاسيس كثيرة ، كان برغم كل شي يشعر نحوها بالأسى . ويتحدث عنها بينه وبين نفسه بانها امرأة وأي امرأة ، ويكبر فيها انها عرفت كيف تدبر امرها ، بما تبقى لها

من مال، بجرأة عظيمة وبدأب نادر . ولولا ذلك، لذابت بين يديها الدراهم كما يذوب الملح . امرأة واي امرأة... لكن شيئا ما يلبث ان يخالط صفاء خواطره، ليعلن جهارا الى نسائه واولاده ذات يوم غابر وقد جلسوا حول الشاي :

– كلبة... ما لها وللمدينة . كأن اللقمة امتنعت عليها هنا... اتيت بها الى بيتى وحرثت ارضها بيدي ووهبتها الزرع ، ومنعتها من ان تخرج شيئا من مدخرات اخي لبيعه. ، كنت اكفيها مؤونة كل شي...

ويلتفت الى زوجاته :

– هل أسأتن اليها بشيء ؟ اليست زوجة اخي الوحيد ؟ماذا كان ينقصها ؟

وما يلبث ان يتوقف ، يتأمل سلسلة أحداث تنحدر من عهد آدم .

– لكنكن جميعاً نساء . من يدري اي خاطر مريض مر برأسها... او برؤوسكن؟ لكن عندما يصبح ابن اخي رجلا ، لن يكون من السهل عليها ان تبرر فرارها من القرية . ماذا عساها تقول له يومئذ؟ قد تدعي انني اخذت ارضها والمحصول وانني ربما... من يدري ؟ قد تجمع كل الخرافات التي تحوكها النساء .

ورد الشيخ على حديث فاطمة مؤيدا لها، وكأنما يحس بأنه يتجنى عليها كثيرا . او كأنه يكفر عما يجول بخاطره :

– ما قلته حق يا للا . حياة القرية شاقة، ولا يتحملها الا الرجال... لكننا لسنا كجميع الناس ، ولستِ ككل الناس ، ولست ككل النساء . كان عندك من يكفيك كل مشقة... دعينا من ذلك الان... ما وقع قد وقع... لكن حياة البادية هي الحياة الحقيقية .

ويتدخل قاسم بهمة من ينهي موضوعاً شائكاً ، وينزع الى التوفيق :

– لكل حياة مساوئها ومحاسنها يا عم ، الخير كله في البادية ورجالها ، لكن لولا حياة المدينة ما كنت لأتعلم ولا أخي ، وهذه من حسناتها .

ورن في هذه اللحظة جرس الباب ، فاسرع قاسم لفتحه، وسرعان ما عاد ووراءه فتى في السادسة عشرة :

– اخي ابراهيم ، يا عم علي .

وتقدم ابراهيم مرتبكا، وقد احمر وجهه كفتاة عذراء... وقبل يد عمه متمتما بما لا يفهم .

واسترد الشيخ يده في انشراح ظاهر :

– تبارك الله... انه رجل ايضاً ، بارك الله فيك .

وخيل لقاسم انه يرى مسحة رضى، وطمأنينة، تخامر ملامح امه، وهي تجيب :

– الله يبارك فيك يا حاج علي... الفضل فضلكم، ما عرفت الا الخير منذ حللت بداركم ، وكنت قبل ذلك يتيمة التقط اللقم في القرية، بعد وفاة والدي .

وقاطعها الشيخ :

– اعوذ بالله، لا تذكري ذلك ... كلك بركة، منذ تزوجك المرحوم، عمت دارنا البركة . انت من غرس طيب ، ولذلك اخترتك لأخي .

وعادت فاطمة تقول في انطلاق :

– الفضل فضلكم .

وبدا لقاسم انه يرى لأول مرة سعادة حقيقية، ترتسم على وجه والدته... يالله لو تزوجها بعد ابي ؟ ما اشبههما الان بفتيين يمثلان مشهد غزل قديم، بوجوه مستعارة ، وتسمع قاسم في داخله، لصوت منتحب واهن لأمه، تقول :

– لم يكن فراري من القرية فحسب ، بل من عمك ، نعم عمك... ارادني زوجة بعد وفاة اخيه .

وتابع قاسم ما يرتسم على وجه عمه من انفعالات مرحة . ترى بماذا يفكر هذا الشيخ الواهن ؟ ما قوله فيما تدعي ؟

كان ابراهيم لا يزال مسمرا في مكانه ، حائرا ، ثم غادرهم نحو المطبخ ، والكأس في يده ، وانتبه اليه عمه :

ـ ألا تجلس معنا ؟

وتدخلت الأم :

ـ انه هكذا يا حاج ، لا يكاد يجالسنا أبدا .

وهمهم الشيخ مع نفسه قليلا .

ولم تمض برهة، حتى سمعت آهة وصوت فرقعة زجاج على الأرض : حاولت الأم ان تقوم فأقعدها قاسم ، وقام متجها نحو المطبخ . كان ابراهيم مضطربا، وجلا وقد تناثر زجاج الكأس على الأرض ، وربت قاسم على كتف اخيه مستنكرا :

ـ لم هذا الإضطراب من اجل كأس ؟

تلعثم لسان ابراهيم :

ـ ليس الكأس هو السبب ؟ لا أدري ، احسست بدوار وارتعدت .

وقاطعه قاسم في لهجة من يفهم :

ـ لا عليك . كلنا يحدث لنا مثل ذلك ، هيا نجمع الشظايا .

وعندما انتهيا، اخذ قاسم بيد ابراهيم، كأنه يجره الى مجلس الأسرة وقال له بلهجة آمرة لا تخلو من عطف :

ـ اجلس معنا . انت رجل ، وهذا عمك .

وبدا على الفتى انه يغالب بركاناً من انفعالاته الداخلية، فجلس على حشية منخفضة قرب الباب ، واطرق الى الأرض .

ومد له قاسم كأساً :

ــ اشرب . وعندما تتوظف ، او تصبح غنيا ، ستشتري مجموعة كؤوس، لا كأساً واحدا .

وضحك وهو ينهي خطابه، محاولا ان يزيل اثر كل اضطراب عن اخيه.

وبدا على وجه الأم اصفرار، ذهب بمعالم الحياة من وجهها . اما الشيخ فكان يحدق بعينيه الضيقتين في الفتى ، كانما يريد ان يستشف باطنه .

وقال قاسم في لهجة مشجعة ، يغير بها موضوع الحديث :

ــ هل شرعتم في الإمتحانات ؟

اجاب الفتى دون أن يرفع بصره الى أخيه، ثم ما لبث ان اعاده الى الأرض في طرفة عين :

ــ سنبدأ بعد أسبوع .

واستأنف قاسم :

ــ يجب ان تستعد جيدا .

ولم يجب الفتى ، كان قد افرغ كأسه ، وطفق يدلكها بين يديه...

وقال قاسم :

ــ بالمناسبة ، اود ان تطلعني على اشعارك يا ابراهيم .

وارتعب الفتى ، فطمأنه قاسم :

ــ عثرت على الكراسة صدفة، فوق مكتبي وقرأت بعضها... انها لا تخلو من جمال .

واستعاد الفتى هدوءه وهو يقوم متمتماً :

ـ عندي ... عندي دروس اراجعها .

وخرج ، وما لبثت الأم ان قامت ايضا ، وهي تقول :

ـ خذ عمك يا قاسم الى غرفتك . قالت ذلك بلهجة من تعتذر بأشغال المطبخ.

وأعان قاسم عمه على النهوض ، الى الغرفة الأخرى .

امسك الشيخ بمصراعي النافذة المفتوحين،ووقف يتأمل الشارع والبنايات المتراصة امامه . ووقف قاسم بجانبه .

قال الشيخ في لهجة مازحة :

ـ ان النظر الى المباني البيضاء يؤذي البصر ، اما عندنا فهناك الخضرة ومنظر التراب والنهر...

ورد قاسم موافقا في مجاملة . بينما تابع الشيخ حركات رجل يحمل قفة خضر ، ويغيب في العمارة المقابلة ، ثم التفت الى قاسم متسائلا :

ـ من يكون ؟

واستفهم قاسم :

ـ ما تعني ؟

ـ الرجل الذي دخل هناك...

لم يكن قاسم قد انتبه لذلك فأجاب :

ـ لا أعرفه . نحن هنا لا نتعارف كثيرا .

ونظر اليه الشيخ متعجبا . لم يفهم كيف لا يعرف المرء جاره.واستأنف قاسم :

– لو سألتني عن جاري المباشر ، وبابه يحاذي بابي ، لما وجدتني أعرفه .

وازداد عجب الشيخ .

انهم في القرية يعرفون حتى الكلاب والأبقار، وينسبونها الى اصحابها ، كما يعرفون أشياءهم الخاصة .

وبدا أن النسيم البارد قد أساء الى الشيخ ، فأغلق النافذة، واتكأ عليها يسترد انفاسه ، وبدأت أزمة الربو تشتد عليه ، فساعده قاسم على الجلوس، وبدأ الشيخ يبخ في حلقه، ويسعل سعالا واهنا متتابعاً .وحينما بدأت حاله تهدأ قال وهو يعتصر الكلمات اعتصارا :

– لا يوافقني جو البحر... في القرية اكون احسن حالا .

لم يسمع قاسم ذلك وان حرك رأسه موافقاً ، لشد ما تتشبث عظام الشيخ بالحياة . لم يكن يتصور ان مثله في وهنه وعلته، يوجد على قيد الحياة . وكم من اقوياء يفقدون الحياة بعلة اقل خطرا ، مما يعاني العم .

واستأنف الشيخ :

– أريد ان أسألك عن شخص... لا تقل انك لا تعرفه ، انه اكبر رجل في العاصمة... شهرة وثروة... ومحسن كبير .

– نعم ؟

– الحاج المنصوري ؟

وتحسس الشيخ جواب قاسم :

– المنصوري ؟ المنصوري نعم اسمع به كثيرا ، ثري جدا ، لكنني لا اعرفه الا من بعيد . رأيته مرة او مرتين .

لم يرتح الشيخ لهذا الجواب :

– تعرفه من بعيد ؟ كيف ؟ هذا من اقربائنا... لنا به نسب قوي... يجب ان تعرفه ، وذلك ينفعك كثيرا . كيف تقضي سنوات في العاصمة ، ولا تتصل به ؟

وكان قاسم اشد عجبا .

– تقول انه قريبنا يا عم ؟

ورد الشيخ في صيغة توكيد :

– نعم ، كان يجب ان تعرف هذا ، وهو يعرفني جيدا... نلتقي معه في الجد الأكبر. جده الأصغر، كان فقيها ، يعلم القرآن للصبيان . كان جوالا ، واتصل بأسرة اتخذته مقرئا لأبنائها في الرباط ، وهنا تزوج وانجب ... والى وقت قريب في حياة والدي ، كان المنصوري الإبن الحالي وأبوه، يترددان كثيرا على والدي ابان المحصول . كان الأب يتاجر في الحبوب اما المنصوري هذا الذي اصبح اليوم من هو ، فكان طفلا في سن ابنى صالح أواخيك ابراهيم... ابراهيم اطول، وكنت اصغر منه بكثير... لكنه نوع تجارته بعد ابيه واغتنى . ولم يتردد علينا الا مرة او مرتين، بعد وفاة والده ، لكنه كان لنا عونا في كل ضائقة، وفي معركة الأرض ، تلك التي ذهب والدك ضحيتها .

وتوقف الشيخ قليلا محدقا في قاسم، كأنما يريد ان يستوثق من شيء ما :

– تكون امك قد اخبرتك بظروف وفاة والدك ؟

واكد قاسم :

– نعم . اخبرتني .

وتأسى العم قليلا قبل ان يستأنف :

– في قضية الأرض تلك لم ينفعنى الا المنصوري هذا . اذ ارادوا انتزاع

كل ارضي،كما فعلوا مع الكثير.وقصدته لست ادري كيف تذكرته، في تلك اللحظة ،وكانت له يد قوية مع الحكومة الفرنسوية في العاصمة. فأعطاني رسالة توجهت بها الى الحاكم الفرنسوي عندنا ، فأصبح الجميع يهابني ، وبذلك امكنني ان استرد بعض ارضي ،وعوضوا لي عن باقيها بأراضي أخرى...

وتوقف الشيخ يبخ في حلقه ثم تساءل :

– ترى كيف هو الان ، اني لم اره منذ عشرين سنة او اكثر...

ورد قاسم :

– يبدو من بعيد في صحة جيدة ، يسير قويما .

وقاطعه عمه :

– لا عجب انه لم ينحن طول حياته على الأرض مثلنا... ومع ذلك فهو اكبر مني بكثير ، قد يكون جاوز الثمانين ، بكل تأكيد ... اين اصبح يسكن؟

ورد قاسم :

– قصره الفخم في السويسي .

وتمتم الشيخ بذكريات قديمة .

كان يعرف المنصوري في زقاق ضيق، بالمدينة القديمة قبل ان ينتقل الى غيره وغيره .

وقال :

– يجب ان نزوره يا قاسم . لقد جئت من اجل هذا ايضا، وسأعرفك به.أريد ان اتصل به من أجل الأرض ايضا .

– الأرض ؟

واكد الشيخ :

ـ نعم ، هذا حالنا يا بني...

لم يع قاسم صوت عمه ، فقد طغى في أعماقه صوت والدته :

ـ عمك والأرض ، حكاية لا تنتهي يا بني . لا تصدق عندما يقول انه مظلوم في قطعة ارض : انه يلتهم كل الأراضي ولا يقنع . تصور قرية بكاملها ، اصبحت مجموعة خماسين ورعاة عليه ، واراضيهم اين هي؟ التهم الفرنسيون بعضها، والتهم هو الباقي ، من يقف في وجهه، ومعه الحاكم والقائد والعساكر ؟

وتساءل قاسم : ايكون مظلوما هذه المرة ؟

واستمر الشيخ يعرض موضوع الأرض ، ووجد قاسم نفسه في عالم غريب عنه ، أحداث لم يعلم بها من قبل : حكومة الإستقلال تضع مشروعا لاسترداد اراضي المعمرين الأجانب ، ويتقدم لشرائها اغنياء المدن وكبار الموظفين بطرق ملتوية . اما الفلاحون اصحاب الأرض الحقيقيون ، فتضيق بهم السبل ، ولا يجدون طريقا يؤدي بهم الى الأرض . وهنا يأتي دور الحاج علي .

ـ وماذا تنوي ان تفعل يا عم ؟

ويرد الشيخ معتزا ، وهو يتكئ جيدا على وسادة :

ـ جمعت الفلاحين وكتبنا عرائض الى الوزارة ، وتجمعنا بمكتب القائد والعامل، واخيرا توقف البيع . والأرض تحت رعاية الحكومة بصفةمؤقتة .

وبدا على قاسم انه يريد مزيدا من الإيضاح :

ـ وما يمكن ان يفعل المنصوري ؟

وابتسم، الشيخ كأنه يقول لقاسم، ما اقل ادراككم بالأمور يا ابناء اليوم ، وقال :

ـ ان المنصوري، يمكن أن يقطع كل محاولة من جانب من يريدون، شراء اراضي الفلاحين...

وتوقف الشيخ قليلا مستسلماً لأزمة سعال ، ثم عاد يقول :

ـ وهناك جانب آخر في الموضوع ، هو المهم، فالحكومة سوف تقسم الأرض على رجال القرية دون تمييز ، بالتساوي .

أجاب قاسم بدون تدبر :

ـ هذا جميل .

وغاب الشيخ في احدى نوباته ثم قال :

ـ تقول انه جميل... ليكن... نعم جميل ، لكن يجب ان يكون المرء فطناً...

على كل هذا موضوع آخر سيتضح بعد الإتصال بالمنصوري .

وعاد الشيخ يبخ في حلقه، بينما دخلت فاطمة تعد مائدة العشاء ، فتمتم الشيخ وطلب ماء ساخنا يتوضأ به ، فقد انساه الحديث صلاة العشائين .

— 3 —

ارتدت يد قاسم عن الجرس كمن لسعه تيار ، على الصوت المرح الذي ناداه من خلفه :

— اهلا قاسم ؟

وارتبك قاسم وهو يصافح غناماً ، احد زملائه في الدراسة .

— ماذا تفعل هنا ؟

لم تخل نبرة غنام من لهجة مرح ،وعيناه تلمعان ببريق انتصار.اجاب قاسم في تلعثم ظاهر ،كما لو فوجيء يقترف إثماً . كان واضحاً انه لا يرتاح الى غنام :

— ازور الحاج المنصوري ... لا تتعجب ، او اولى بك الا تتعجب، فقد اكتشفت ان لي به علاقة نسب .

وابتسم غنام ابتسامة العليم بالأسرار :

— طبعاً ، طبعاً هذا هو الطريق الى مثل هذا الرجل الكبير .

واجال بصره في القصر الفخم الشامخ ، واردف :

— خطة جهنمية ، اهنئك .

توقع قاسم ذلك من زميله . وآلمته اللهجة ، وتفرس كثيرا في الوجه الأمرد الصغير،على القامة القصيرة المتينة،ككرة صغيرة فوق كيس مكتنز.وبدت له

بشاعة صاحبه، في عدم التوافق بين الرأس الصغيرة، والجسم الضخم القصير. وطالما غاظته اناقته التي لا حد لها. واجاب أخيرا وكأنه ينهر زميله :

ـ اية خطة ؟ قلت لك ان الرجل من اقربائي ، او هذا ما كشفه لي عمي اخيرا وهو معه الان داخل الدار .

لم يبد على غنام انه اقتنع ، لكنه خفف من استهتاره الظاهر... وقال في لهجة الناصح :

ـ ما قصدت اغضابك... مهما يكن ، فهذه ورقة رابحة في يدك..لا تضيعها، لو كنت مكانك...

وعدل اطار نظارته الذهبي ، في حركة غير ضرورية ، وهو يستأنف :

ـ على كل ، فقد كنت اود ان اتعرف على هذا الرجل من قريب... مهما يكن ، فإني أهنئك .

ومد يده إلى قاسم مودعا مصافحا .

وظل قاسم في مكانه، يتابع سير غنام، وخطواته السريعة الثابتة . ولم يبتعد هذا كثيرا ، حتى التفت مرة أخرى إلى قاسم ، وقال كأنه يصيح :

ـ أود أن أراك يا قاسم... بعض محاضرات تخلفت عنها ، ولن أحضر غدا أيضـــا .

أشار مرة أخرى مودعاً، والإبتسامة لاتفارقه . وتساءل قاسم، بينه وبين نفسه : ما الذي أتى بغنام إلى هذا الحي؟ وخيل إليه أن زميله مازال واقفاً أمامه يجيب ، بابتسامته المعهـــودة :

ـ أنا ؟ جئت أيضاً في زيارة عائلية ، لبعض الكبار !

لكم يكرهه الان، ويعجب لثقته بنفسه التي لا حد لها . معرفتهما قديمة، لكن الإنسجام ، لم يمتد بينهما قط : .

كان غنام معلماً مثل قاسم ، قبل أن يظفر بالمنحة الجامعية أيضاً . وكان غنام مفتتح العلاقة بينهما. أظهر إعجابه بقاسم. مطرياً مواهبه. وتلك طريقته. واكتشف فيه قاسم ثعلباً، أوهكذا خيل إليه ، يتسلل إلى كل الأجواء . لكن قاسماً مع ذلك ، لم يكن متيقناً من صدق حكمه . إنه يخشى أن يحاكم الناس، كل ما هو متيقن منه ، شعوره بعدم الارتياح إلى سلوك غنام ، وحتى ما يبدو من هذا صراحة، يبدو في فهم قاسم، وقاحة أو مكرا . ذات يوم ، بعد أن استمع إلى إنتقاد قاسم لسلوكه :

– أنا فقير كما ترى، ويجب أن أسلك كل طريق، يبعدني عن هذا الفقر . إني أعمل بمثل إنجليزي يقول :

اجذب صنارتك أو اضرب في الوقت المناسب . ولن أراوغك يا قاسم ، أنت فقير مثلي ، وطريقنا يجب أن يكون واحدا ، لست مثالياً ولا أتعلق بالأوهام . أريد أن أعيش في أحسن حال ، وكفى .

لم تتعد علاقتهما ذلك . ويتضايق قاسم باستمرار من لهجة زميله ، ويراقب سلوكه من حيث لا يشعر، ولا يريد، وربما حاول أن يتجاهل وجوده دون أن يستطيع، وكثيرا ما سأل قاسم نفسه، عن سبب هذه الشعور من جانبه ، وعن سبب اهتمامه بغنام، وتوصل إلى أن سبب شعوره ربما كان ناتجاً، عن سلوكهما المختلف في الدراسة . فرغم أن غناماً، يجتاز كل مراحل دراسته بنجاح كقاسم، فهو لم يكن موفقاً كل التوفيق، كطالب مجد . لكن هل يكفي هذا لزرع شعور معين في ضمير قاسم ، على صديقــه ؟

كلا ، بل ربما رجعت عوامل هذا الشعور بالضبط ، إلى أن غنام، كان يتوسل الى نجاحه في الإمتحانات، بكل الوسائل. يذكر قاسم، مواقف زميله في مختلف الإمتحانات، وهو يدخل مستعدا بكل وسائل الغش ... ولكن هذا ايضاً يبدو

سخيفا،كسبب لهذا الشعور الحاد،بعدم الإرتياح الى هذا الصديق . ومهما تكن الأسباب،فهناك اعتداد بالنفس الى درجة الغرور،يبدو على سلوك غنام. وهناك ايضا وصولية واضحة في هذا السلوك،قد يكونان اهم ما يدخل في عوامل ذلك الشعور ، وكم مرة كرر قاسم : لم لا أدعه وشأنه ؟

ليكن من يكون . فما دمت لا أحتمله فلم اشغل نفسي به ؟ اما مظهر قاسم فكان هادئا متزناً،وتواضعه الجم يفرض الإحترام ، ومساعدته للغير ،وجده في العمل،كل ذلك كون له سمعة... لكن هذا قد لا يكون الا مظهرا ، وربما كانت اعمق اعماق قاسم ، لا تختلف في طبيعتها عن طبيعة غنام ، بل ربما كانت هذه الطبيعة الباطنية،التي يلتقي فيها الزميلان،رغم مظهريهما المختلفين، هي سبب عدم الإرتياح السائد بينهما . ويكون معنى ذلك ان قاسماً مدفوع عن لا وعي،الى رفض الصورة التي يظهر بها صديقه ، والتي تحمل بالنسبة لقاسم ، طبيعته الأصلية،التي يحاول ان يغطي عليها،بمظهر مكتسب مخالف لها . وهنا يتساءل قاسم بينهوبين نفسه،مرتعباً: أحقاً ؟ أحقاً يكون مظهر غنام، نسخة من شخصيتي الباطنية ؟ !

وما لبث ان ثار على هذا الخاطر . يكاد يصرخ ليقنع نفسه : مهما يكن ، فأنا ارفض مظهر غنام،سواء انطبق مع باطنه ام لم ينطبق، وارفض طبيعتي الباطنية ، ان كانت تطابق ما عليه غنام ،واعمل ضدها وهذا يكفيني...

وكأنما ارتاح لهذا التبرير،فانتبه من جديد الى مكانه ، وجال نظره في الحي الهادي الجميل،وقد تلونت السماء بلون الغروب.وفاحت في الجوروائح الأزهار والرياحين... فاتجه من جديد،نحو الباب الحديدي الكبير،ومد يده الى الجرس ، ضاغطاً عليه بقوة .

انفرج الباب الحديدي الكبير،وبرزت رأس صغيرة لطفل اسود،متسائلا. فرد قاسم :

– أريد الحاج المنصوري .

وغاب الطفل دون ان ينبس بلفظ ، وما لبث ان عاد على اثر ذلك، رجل في ملابس بيضاء ، يبدو أنها خاصة بالخدم ، وبدا من ملامح الرجل ، أنه والد الطفل ، وسأل قاسماً :

– من تريد يا سيد ؟

– الحاج المنصوري . اهو هنا ؟

وبدا التردد على وجه الخادم ، ثم تجاهل الرد على سؤال قاسم، وسأله بدوره :

– من سيادتك ؟

– قاسم...

وتلعثم لسانه لأول مرة باسمه . واستفهم الخادم مرة أخرى :

– قاسم ، ياش ؟

وارتاع قاسم من فراغ اسمه ، كأن مقاطعه غريبة . وردد اسمه في خاطره مرات ، نكرة لا معنى له، ولا تحديد. اجوف. وترددت في خاطره، سلسلة أسماء ، لها المعنى، والوزن اللازم. انها ليست منه ولا هو منها ، هذا يعرفه من قبل ، لكنه لم يعش لحظة حرجة، يعاني فيها وزن الأسماء . والرجل ما زال يتطلع اليه : قاسم ياش ؟ ياش ؟ تلك الأسماء لا يعقبها هذا السؤال، القصير البليغ ، المعبر عن المعاني والأوزان في عالم الأسماء : ياش ؟

ورد قاسم مترددا ، كانه يلتمس موقعاً لقدمه في الظلام :

– قاسم... الشاوي .

هل امتلأ الفراغ الان ؟ هل اكتسب اسمه وزناً ؟ نظرة الخادم لا تدل على ذلك، وقال موضحاً للرجل الذي اوشك ان يعود الى الداخل :

– اسمع ...يوجد الان في الداخل، مع الحاج المنصوري، شيخ بدوي... الحاج علي ، انه عمي... أريد ان اراه واعود به .

وغاب الخادم دون ان ينبس ، ثم عاد وفتح الباب ، فخطا قاسم يتبعه ليجد نفسه في ساحة فسيحة مستديرة ، ذات ارضية رخامية،تتوسطها خصة ضخمة،يتقاذف من عيونها الماء . وعلى جانبي الفسحة،وراء طوار بارز، تمتد حديقة منسقة غناء ، يمينا وشمالا،محيطة بالقصر الرابض في أقصى الفسحة ، على درجات عالية .

صعد قاسم وراء البواب،ووقفا تحت سقيفة عند مدخل القصر ، يتوسطه باب من زجاج ثخين ملون،مدعم بشباك معدني،ذي اشكال هندسية متشابكة . ضغط الرجل على جرس صغير ، وسرعان ما انفتح الباب،فأومأ الى قاسم بالدخول ، فإذا هو في بهو كبير،ترتفع في وسطه قبة مجوفة بنقوش بديعة، وقد تدلت من السقف ، من كل ركن ، عناقيد الزخرف والنقوش ، وتعددت على جوانب البهو، غرف عديدة يبدو اثاثها الفاخر من ابوابها المفتحة . ولمح قاسم من احد الأبواب، رجلا فارع القامة قائماً يصلي ، بينما اشار اليه خادم بأن يتقدم،نحو غرفة الى اليسار،لم يجد بها سوى عمه متكورا،بين الوسائد الفخمة، يكاد يغيب فيها، وامامه ادوات الشاي . لم تمض مدة،حتى دخل المنصوري،الذي كان يتطلع الى قاسم وهو يجلس قبالته،على حشية واطئة ، وفي فمه ما تزال ، دعوات تتردد :

– هو ذا ابن اخي... قاسم .

ورد المنصوري ويداه تمرران سبحة لؤلئية .

– نعم عرفت... مرحباً به ،

وجمع حاجبيه المشوكين النافرين الى اعلى ، ووجهه الذي بدا مستطيلا قوي العظام ، وانفه الضخم البارز ... في مظهر يشي بالقوة التي كان يتمتع بها الرجل

في شبابه ، ان جاز انه الان ، ليس على مثل تلك القوة ، وقال كأنه يلوم قاسماً :

ـ كيف لا تزورنا يا بني ، وانت هنا ، منذ سنوات حسب ما اخبرني عمك ؟

ورد قاسم في استحياء ، وقد اخذ بتواضع الرجل ، وكان في نيته ان يقول : لم اكن اعرف ان بيننا قرابة . لكن عندما تذكر شهرة المنصوري ، وما عرف به من احسان ، وكثرة قاصديه ، لم يجد فيما دار في نيته مبررا ، وقال :

ـ لم يحصل لي الشرف ، يا سيدي .

وتدخل عمه :

ـ هكذا شباب اليوم ، لا يهتمون بصلة الرحم ، والبحث عن الأحباب...

وطفق يعيد حكاية الجد الأكبر للمنصوري ، الذي هجر القرية ، وابناءه الذين لم ينسوا قريتهم وأهلهم ابدا ، وبعث صورة المنصوري وهو فتى يافع مع والده ، يزوران القرية ابان المحصول ، ثم انهى عبارته موجها الكلام الى المنصوري ، الذي بدا انه يؤمن على كل ما يقوله محدثه :

ـ ولكنك يا حاج ، تتفق معي على انك بعد والدك ، الله يرحمه ، لم تتردد علينا الا مرات قليلة جدا .

وبدا المنصوري كأنه يعاني الما وهو يقول :

ـ الصحة يا حاج تدهورت .

واومأ الاخر ، كأنما ذكرته كلمات المنصوري ، ما يعانيه هو من امراض ، فبحث عن بخاخته ، وضغط عليها مرات في حلقه ، وان لم يبد عليه ، انه يعاني أزمة ما .

ووجه المنصوري كلامه الى قاسم ، مرة اخرى :

– اين تدرس ؟ لم افلح في فهم ذلك من عملك ؟
– في كلية الاداب ، فرع...

وقاطعه المنصوري كمن لا يعبأ بالتفاصيل :

– اعرف كثيرا من الطلبة، يترددون علي لبعض المساعدة . استغفر الله، لا اذكر الأسماء،لكن ابن اخي والفقيه التاغي .يسجلان الأسماء.لا بد ان تعرف بعضهم .

قال قاسم،وهو يضغط على كأس شاي،ناوله اياه صبي من خدم الدار ، بعد ان ملأه من براد ضخم انيق،على الصينية التي امام عمه . ولمجرد ان يرد على حديث المنصوري ، وكأن الكلمات تخرج من باطن شخص آخر :

– انت طيب،ورجل خير واحسان فالمدارس والمستشفيات والمساجد التي أقمتها و...

قاطعه المنصوري غير عابىء بذلك :

– لا فضل لي يا ولدي في ذلك ، الله هو الذي يعطي،ويبني ويحسن، اما انا فلست الا وسيلة...

وتوقف يستغفر ويحوقل ، والحبات اللؤلئية تسرع بين اصابعه ، ثم توقف ، واتم كلامه :

– ما ترك لنا الأولون شيئا نفخر به ، اين انا من احسان والدي ؟ لقد رأيت العجب من كرمه يا بني .

وصادف هذا الحديث هوى في نفس الحاج علي ،كما تصادف الريح شراعا مبسوطا ، فاندفع يحيي صور الماضي،والأسلاف وزمن البركة ، وقناعة الناس. أما اليوم فكل شي قد تغير. وتحدث عن زمان،كان شرب الشاي فيه نعمة اي نعمة . في قريته لم يكن يملك الصينية والبراد والبقراج النحاسي، الا والده...

بل لم يكن في القبيلة كلها الا أفراد قلائل، لا يتجاوزون الخمسة يملكون ذلك... وعندما ينزل ضيف عند البعض ، فان احد الأتباع يمتطي فرساً ، ويسرع الى اقرب قرية، لاستعارة اواني الشاي . وربما استعار السكر والشاي ايضا... ولم يكن احد يجد غضاضة في ذلك ، اما اليوم فلا احد يتحدث بنعمة ربه ، وختم مؤكدا وموجها كلامه ، الى المنصوري الذي بدا انه يفهمه حق الفهم، ويتابعه :

– ضاعت القناعة يا حاج .

واضاف الحاج في تحمس :

– ضاع الإيمان ، والشكر والإحسان... ضاع كثير يا اخي .

واكد الشيخ علي :

– **صدقت ضاعت القناعة والايمان و... وكثير**

واحس قاسم بانه غريب، لا يشعر به، وطفق المنصوري يتحدث عن ايام زمان ايضاً ، عندما كان الإحسان الى شخص، لا يتعدى تمرة او كرموسة او كسرة . اما اليوم :

– الفلوس . كل واحد يطلب الفلوس . حتى المتسولين لا يرضون بالقوت . وتعطي صبحا ، من يعود إليك ظهرا وعشاء . الله يلطف ... الله يلطف ...

وعادت اصابعه تسرع على حبات المسبحة، ثم توقفت ، ليقول المنصوري، وكانه يحدث بسر خطير :

– بمناسبة القناعة والشكر ، اسمع يا حاج : وانبعثت من حديثه صورة الرئيس الكبير، الذي لا يستعطي كسرة ولا تمرة، ولكنه يطلب الوساطة لترقية اكبر . والمسؤول الاخر ، الذي يطلب تدخلا هنا او هناك ، وللثالث... وللرابع...

وانهم لكثير ،يقتلهم الخوف على مراكزهم . ويملأ نفوسهم طمع لا يرتوى. الى ما هو ارقى...

ووشت حركة يده بالتذمر ، وهو يعود الى مسبحته قائلا :

– الكل يتسول... والله يلطف .

وربطت حكايات العمر الذهبي للقناعة والإحسان ، والحاضر المتسول الطموح،بين الشخصين ، وقاسم بينهما حلقة مجهولة السبب ، مبتورة . لا تنتمي لفترة معينة .

ودخل خادم يعد السفرة،في الطرف الأقصى للغرفة الفسيحة . ودخل على الأثر رجل بدوي ، رث الحال ، يبدو عليه الإستئناس بالدار واهلها... جلابته صوفية غليظة سوداء . عمامة ، وبلغة متهالكة ، خلعها عند العتبة . سلم بيد خشنة على قاسم وعمه ، وانتحى مجلسه قرب المائدة،قائلا بطيبة ابن الأرض:

– العاقل يختار مكانه .

وسرت البسمة في وجوه الحاضرين وكان الخادم قد بدأ يصف الأطباق وقطع الخبز على المائدة . وأومأ المنصوري الى ضيفيه بان يأخذا مجلسهما الى المائدة.وسرعان ما استغرق الحاج علي،مع القروي، في احاديث طويلة ، ربطت بينهما برباط قوي ، من الاستجابة والتفاهم. وانتهز المنصوري.فترة صمت بينهما ، ليسأل صاحبه البدوي :

– هل انهيتم يا عباس ؟

اجاب الرجل في تذمر متكلف :

– مع فقيهك التاغي،لا ننتهي قبل الصبح... انه يسأل عن النعجة،والخروف، والعجل ، عن علامته ولونه... يا شيخ سجل العدد والسلام...

قال ذلك ونفض يده ، كأنه بالفعل ينهي الشغل كله ، بهذه الحركة .

وعلق المنصوري على ذلك، بلهجة استنكار ارادها ان تكون بين الافتعال والحزم :

– وماذا تريد ؟ انه يقوم بشغله ، ام تريد ان يكون مثلكم ؟

وتساءل عباس مستنكرا :

– مثلنا ؟ يا سيدي ان اردت...

وتوقف ينظر الى الجميع، كأنما يهيؤهم لسماع ما سيقول ثم اردف :

– ان اردت يا حاج ، كما قلت لفقيهك :

اعملوا صورة ، واطبعوا اوراق تعريف ، للنعاج والعجول !

وضحك بملء فيه ، وضحك الجميع معه . كانت خفة الدم، بادية عليه واستأنف يقول، متوجها الى الحاج علي، ولكنه في الواقع يعني المنصوري :

– ياسيدي... هذه دارنا ، الله يكبر ويزيد ، ويطول عمر مولاها...

وكانت هذه مناسبة ، ليتحدث عن عمل ابيه، في رعي وحرث ممتلكات المنصوري ، وعن ترعرعه في تلك النعمة ، ومشاركته لوالده ، ثم مشاركة اولاده له اليوم ، في نفس الشغل . وانهى كلامه، كما يعود المنشد الى اللازمة.

– يا سيدي الدار دارنا ، الله يطول عمر مولاها ويزيده...

كان الثلاثة قد بدأوا يأكلون، بعد ان شجعهم القروي، اما المنصوري فاكتفى بأن قال لهم :

– بالصحة .

وتناول تفاحة بدأ يقشرها، من إناء كبير، تنوعت فواكهه. كان واضحا انه يلتزم بنظام معين في التغذية ، وسرعان ما انتبه الى شيء فتمتم :

ـ اعوذ بالله... نسيت الدواء...

وتساءل المنصوري بعد فترة،عن حال الماشية.وانطلقت مع اللقم في فم القروي،مئات الأعداد.من الخرفان،والنعاج والثيران... عن القطعان السوداء، والبيضاء، والبلدي والرومي منها ، وانهى حديثه متوقفا في لهجة اسى :

ـ انما يا حاج .

وتساءل المنصوري :

ـ ماذا ؟

ـ قبيلة اولاد عمران .

ليس عباس الاواحدا ،من عشرات من اعوان المنصوري،ورعاته . وليست الضيعة التي يسيرها،الا واحدة من عشرات غيرها.لكن اولاد عمران هؤلاء ، قبيلة تحسد عباس على نعمته ، أوعلى الأقل هذا ما يفهمه عباس ، ولذلك فهذه القبيلة تشاغب ، تارة تسرق بعض العجول او الخرفان من المراعي،في غفلة ابنائه او تترك مواشيها تعيث في الزرع...

ـ الحسد يا سيدي والكفر بالله... والمزاليط ، الكلاب،لا يصلحهم الا السوط .

وحرك المنصوري رأسه،علامة الموافقة ،وكذلك فعل الحاج علي. الرأس الوحيدة التي لم تكن تتحرك للريح ، هي رأس قاسم .

واردف القروي ، موجها كلامه الى الحاج علي :

ـ تصور يا سيدي . هذه القبيلة الكافرة،خصص لها الحاج مراعي فسيحة لماشيتها . لكن ذلك لم يكفهم،ولم يقفوا عند حد . لأنهم يعرفون ان سيدي الحاج،قلبه هش،ويحسن الى الضعفاء... اما انا فأعرفهم،وكان من رأيي الا تخصص لهم شبرا واحدا ، الا بالإيجار .

وتنحنح المنصوري وقال :

– قل لي يا عباس ؟
– نعم ؟
– هل انت تأخذ منهم ايجارا ، عن تلك الأراضي .
وتوقفت يد عباس عن اللقمة ، مبهوتا اول الأمر ، ثم ما لبث ان قال:
– إيجار يا سيدي ؟ انك لم تقبل ذلك ، وقلت لي...
وقاطعه المنصوري :
– نعم ، نعم، لكن احدهم قدم عندي، وأخبرني انك تؤجرها لهم، خلاف ما وعدتهم !
وابتسم عباس :
– اخالف امرك ؟ هها ، كذب . من قالها... اهو المعطي ام ابن فاطنة ؟من هو ؟ من هو ؟
ولم يبد له ان المنصوري سيخبره باسم الشخص ، بل لم يبد له ان كان المنصوري صادقا ، ام فقط يتخذ ذلك طريقة لاستطلاع ما يجري ، وقال عباس :
– على كل يا سيدي ، انت تعرف هؤلاء القوم . طمع وحسد وشر . وتعرف شغلي، حتى زوجتي والصغار يشتغلون معي، بأيديهم يكنسون ويحرثون ويرعون، فلا تنصت لأحد ، ويجب ان تزور بنفسك .

وبدا ان المنصوري يتألم، لأنه لم يعد يستطيع ان يطوف على مزارعه، واعوانه المنتشرين في كل قبيلة، بعد تدهور صحته ، وهو لا يتجول احيانا في السيارة الا مخالفة لأوامر الطبيب ، حتى السائق، اصبح وكأنه لا شغل له . لو كان له اولاد ، لأراحوه من مثل ذلك . لكن رجلا مثله بدون عقب، ما عليه الا ن يستسلم ، لأعوانه وقال :
– اعرفك حقاً يا عباس ، وانت مصدق عندي .

وارتاح عباس ، وعادت يده نشيطة الحركة الى فمه .

وعندما رفعت المائدة ، قال عباس ، وكأنه يتابع حديثه :

– عندي يا سيدي الحاج طريقة نؤدبهم بها،ونحفظ الزرع والماشية . وتساءل المنصوري :

– قل ؟

ولمعت عيناعباس، في مكر ظاهر : الغابة يا سيدي ، الغابة كاريتوز (كاليبتوس) يا حاج . نغرس الأشجار من حافة النهر الى الضاية ، حزام محيط من ثلاث هكتارات عرضا،وبذلك نعزلهم عنا ، واذا أكلت ماشيتهم ورقة واحدة من شجرة ، سجنتهم الحكومة ، وتنتهي من كل شي .

ونظر القروي باعتزاز الى من حوله ، وتطلع الى المنصوري الذي حاول ان يخفي اعجابه بالفكرة . فتشبثه بعباس وامثاله ، لم يكن لغير سبب. فهم عند الحاجة تتفتق اذهانهم بعفوية ، عن العجائب وقال :

– ستتطلب هذه الغابة ، اكثر من خمسمائة هكتار .

وقال عباس مشجعا :

– خمسمائة هكتار ، الف هكتار ، هل تنقص الأرض ؟ يا سيدي الحاج ، هذا سور ابدي بينك وبين القبيلة كلها !

واظهر المنصوري ان منطق عباس ، يغلبه فقال :

– اذن،لا تنس ان تحدث الفقيه التاغي بالموضوع ، لينفذه في اقرب وقت ويجب ان تنتهيا هذه الليلة ، من تسجيل الماشية .

وصدرت عن عباس حركة كأنه يقول :

– تنتهي الليلة ؟ يا ليت...

كان القروي،آخرمن غسل يده بعد الأكل،فقام مسرعا، مودعا الحاج علي، بحرارة .

تحفز قاسم يهيب بعمه ان يودع . لكن المنصوري ادرك الحركة، فعرض عليهما ان يطيلا الجلسة معه. وان يشربا الشاي مرة اخرى . فاعتذر قاسم . واعدا بأن يكرر الزيارة مرارا .

رافقهما المنصوري الى الباب ، وهناك ودعه الحاج علي شاكرا .

– ابقاك الله لنا ... يدك لا تنسى، سأخبر الفلاحين بكل شيء. ودائما اذكرك لهم . ليتك تزورنا .

كان واضحا ان زيارة الحاج علي ، بلغت غايتها. فالانشراح باد على كل جارحة منه . ومد قاسم يده الى المنصوري مودعا. فأبقاها هذا وسأله في همس تسمعه الحاج علي :

– كم منحتك الدراسية يا بني ؟

وأحس قاسم بالدماء ، تندفع حارة الى وجهه :

– هي... هي...

ولم يبن ، فقاطعه المنصوري .

– اعرف . والعيشة مرتفعة هنا . لا تنس ان تمر غدا على الفقيه التاغي. مكتبه في الواجهة الخلفية . سأحدثه في الموضوع الليلة ، ثم تساءل : والكراء ؟

وانحلت عقدة قاسم :

– مائتا درهم .

وابتسم المنصوري مشجعا :

– سندبر هذه ايضا ان شاء الله ، عندما تزورنا...

وتمتم قاسم بالشكر. وهو يقبل يد المنصوري بحركة عفوية. تعجب لها فيما بعد . اما المنصوري فقد سحب يده ، مستعيذا بالله .

ظل المنصوري واقفا عند الدرجات، وقد بدا البواب مستعدا لإغلاق الباب الخارجي ، وراء الضيفين .

— 4 —

اقبل على مقهى الكلية في لهفة. للمرة العشرين . لم تأت بعد . بل لا احد. والعجوز الفراش وحده بين الأفران التي لم توقد بعد . الوقت مبكر اذن . وكرر هذا لنفسه مرارا.وهو يتجه صوب الحديقة . اصبح لهذا اليوم من كل اسبوع ،طابعه الخاص في حياة قاسم . وكل ما عداه من ايام ، لم تعد سوى ارضية باهتة. يطفو عليها الثلاثاء .كان قد اكمل الدورة وعاد الى المقهى . طالبان فقط. دلفا واقتعدا كرسيين في انتظار ان يعد العجوز لهما قهوة او شايا . ودلف قاسم بدوره . وقف اتجاه رسوم ساذجة على الجدران ، تمثل كائنات يونانية ، كانه يراها لأول مرة...

انهى قوته .وطفق يلقي نظرات هائمة على كراساته . واكتشف انه لا يقرأ، وإنما يفكر في أخطار الطريق وحوادثها،ويتحدث بأن هنية قد يصيبها حادث، في الطريق الى الرباط .

وهتف به صوت ناعم :

— صباح الخير .

— اهلا . تفضلي . كيف كانت الرحلة ؟ اجابت هنية،وهي تمد اليه يدها مبتسمة :

— الجو رائق هذا الصباح .

قال وهو يرنو اليها :

ـ خواطري لم تكن مناسبة .

وبحركة رشيقة ، ازاحت الخصلة السوداء عن جبهتها ، وهي تتساءل :

ـ خواطرك ؟

ـ تصوري اني فاجأت نفسي، افكر منذ لحظة في اخطار الطريق، التي قد يعرضك اليها السفر .

ردت، وهي تزيح محفظتها عن ركبتيها، لتضعها على المائدة الواطئة امامها :

ـ انت اذن لا تصدق ، اني ماهرة في السياقة .

وابتسمت فقال مغيرا الموضوع :

ـ ماذا تشربين ؟

ـ عصير برتقال .

وردد نظره بينهما، وبين الطلاب والطالبات المزدحمين على البار، وقال في ابتسامة آسفة :

ـ الطلب غالي . هنا لا يوجد الا شاي او قهوة .

وردت :

ـ اذن ماء .

وبعد ان جرعت من الكوب . قاربا مقعديهما ، وشرعا يراجعان بضع كراسات ، قبل ابتداء الدرس .

* * *

تراقصت امواج المحيط، متسابقة ترتمي في مياه ابي رقراق، منسابة بهدوء

تحت نظرهما . كانا في مجلسهما المعتاد، في المطعم البحري، وعلى نفس المائدة لم ينس ان يخبرها، انه هو الذي يدعوها اليوم للغداء . وقال في مرح ظاهر :

– سأمثل دور الغني هذا اليوم ، فلا تحطمي كبريائي... هبطت على ثروة مفاجئة . فما رأيك ؟

زمت شفتيها الورديتين ، وقطبت قليلا بين الإستغراب والإستهزاء

– لا تهزئي ، اني أتكلم الجد .

وتسربت الى ثغرها ابتسامة ، وهي تقول :

– متى تعلمت الهذيان ؟

– هذيان ؟ ابدا .

وبدون مقدمات شرع يحدثها عن المنصوري ، الثري الكبير والمنحة الإضافية ، التي خصصها له :

– تصوري، اصبح لي عنده راتب شهري ، كانني موظف . تصوري، ولست الوحيد ، بل هناك كثير... اني لأتعجب ، كيف كانت خطوات معدودات، ولحظات تعارف وجيزة، كافية لإحداث كل هذا ، ولم افعل ذلك من قبل . حقا ان الحياة محيرة ! وتصوري، ان هناك الان، في كل بقعة من بلادنا العريضة، يوجد من هم على بعد خطوات ، من مثل هذا ولا يخطون...

وتساءلت دون انتباه الى تعليقاته :

– هنيئاً لك . كنت مقصرا في حقه ، ما دام من معارفك .

ورد عليها في جد ظاهر :

– ربما... لكنك لا تعلمين، اني مريض بكبرياء فظيعة . يخيل الي ان كل ما يأتيني عن طريق الغير، يستعبدني . اريد ان أعطي ، ولا آخذ من احد، لكني لا أملك ما يعطى، وهذه إحدى مشاكلي... اتعلمين اي شعور يخامرني ؟ إني

اشعر بهذه المنحة، كأنني جريح او بائس. وعبثا اقاوم هذا الشعور. لأقنع نفسي بأن الحياة هكذا . والأمور هكذا . كل شيء هكذا... تصوري اي عذاب اقاسيه. عندما اتذكر حركة صدرت عني عفوا ، وانا اودع المنصوري . هممت بتقبيل يده . بل ربما قبلتها او التهمتها . من يدري ما قد يصدر عنه في تلك الأحوال الفجائية ؟... وكنت على وشك ان اقرر ، عدم زيارة الفقيه التاغي . لولا تشجيعات عمي ووالدتي ، وبقية في نفسي ، تغالب ذلك الشعور، وترده الى مركب النقص .

وعلقت على تفصيله بإيجار :

– ستتغلب على شعورك ، وتعتاد مثل هذه المواقف .

واختطف منها الكلام :

– سأعتاد ؟ ! هذا ما يرعبني . ومع ذلك ، احس بأني مدفوع الى ان أعتاد... ومكتب الفقيه التاغي . لا يقاوم إغراؤه . خيل الي وانا احوم نحو مكتبه، وادور مترددا ، كأنني فراشة يجذبها النور. ثم اغمضت عيني، وارتميت في اللهيب . هكذا خيل الي .

وقاطعته في شبه احتجاج :

– خيالك يضخم الأمر ، كن بسيطا في تصوراتك .

وقال :

– البساطة ؟ هذا ما اعشقه في كل شيء... اني قد اعقد الأمور، عندما ارد كل شيء الى ذاتي ، ربما لأني اهتم بنفسي كثيرا . وهذه انانية ما في ذلك شك . لكني اريد ان اعرف نفسي ، وفي كل لحظة اكتشف في الأعماق أخدودا غائرا من الشعور بالإثم . لا أومن بالخطيئة الاولى . لكني من وسط لا يخلو من ذلك الشعور . والديمات نتيجة تعذيب وحشي ، تحت ضرب من ذلك الشعور.

ان لم يكن شعوره بذنبه هو ، فبذنب الاخرين نحوه ، فمثل مأساة المسيح في قريته . ووالدتي تحمل شعورا مركبا بالذنب، بذنبها وذنب الاخرين في حقها، ولن يفارقها ذلك . انها هيكل مصلوب متحرك . كم تحاول ان تكفر عن لحظة، اقتنعت بأنها آثمة، اثمرت في بطنها ، ومن ثم، خلطها المضني المتعمد في تواريخ الإزديادات والوفيات ...

وإني لأقسو عليها عن وعي ، علها تفهم وضعها . وتدرك ان ما تتكلفه من خلط ،لا يمحو الجريمة، وان ما تعتقد انه جريمة، قد لا يكون كذلك من زوايا اخرى . وان شر ما في الأمر انها اصبحت ضحية تبريراتها . مصدقة اكاذيبها . فعندما تدافع عن تاريخ معين ، لا يسبها المرء لغير الجنون، لتفاهة الحجة . ومع ذلك كم تتشبث وتتحمس لما تقول .

أترين اي جو يساعد على كل المركبات نعيش فيه ؟ وعندما تدرك والدتي ، انني افهم، واغفر لها عملها دون ان اقتنع بادعاءاتها ، تنكسر نظراتها وتبكي، متعللة باوهى العلل ؛ لأن ذلك لا يكفيها . انها تريد مني اقتناعا تاما، بأنها لم ترتكب إثما ، بينما قد لا أرى فيما فعلت اي إثم ... لكنها لا تحتمل النظرة الفاهمة العارفة ، ولا تحتمل بوجه خاص، ذا كرة الزمان القوية ، متمثلة في التواريخ والمقارنات ونظرات الغير ...

واخي، انه يبدي مظهر غير العليم بما يدور ، لكن سلوكه الشاذ ، حياءه الزائد عن الحد ، بل خجله الشديد ، وهروبه المستمر الى نفسه، وانطواءه... انه قد لا يشعر فقط بالذنب ، بل ربما ملأ نفسه، أنه هو الذنب ذاته... أترين ؟...

كانت قد تراجعت بمقعدها، قليلا الى الوراء . لم تجب عن سؤاله، وانما قالت :

ــ حسناً ، أكمل غداءك .

وانتبه الى انها قد كفت عن الأكل، منذ فترة، فقالت، وهو يقبل على طبقه من جديد :

– العيب الوحيد فيما قلته ، اعني في موفقك ، هو ما انتبهت اليه ولكنك فيما يبدو تتجاوزه ، اما انا فأعتبره اساساً ، واني احاسب نفسي على اساسه : يجب ان تخرج من ذاتك ، وهذا سبيل التخلص من شعورك الذي تصف . لو خرجت من ذاتك ، لما تضايقت من الغير ، بل لبدا لك كل منهم شبيهاً لك ونظيرا، يستحق العطف، والحب ، والمساعدة ، ولوجدتهم في حاجة الى من يكتشفهم ، ويتعاون معهم .

قاطعها وقد خفت حدته بعض الشيء :

– ربما كنت محقة ، فانالا أستطيع ان ازعم انني الوحيد من نوعي ، اوان اسرتي تنفرد بلعنة معينة . لكني مع ذلك ، اريد لأشباهي ونظائري ، ان تفصح عن نفسها ، وان تتمثل واقعها بما فيه من نقائض برؤية واضحة، وما لم يفعلوا ذلك، فلست مستعدا لأجدد حكاية الذئب المقطوع الذنب ، الذي سعى لقطع اذناب كل الذئاب، حتى لا يتميز عنها . لذا فإني افترض، انني لا أزال في مرحلة الكشف عن نفسي ، وهنا يجب ان اتجاهلهم او احاول ذلك ما امكنني .

ردت عليه في استنكار واضح :

– تتجاهلهم ؟

– مؤقتا ، لا بد من ذلك .

وكأنما ادرك ان هذا الحديث ، قد لا يكون مناسبا ، فاعتذر وأجابت :

– اقدر ظروفك ومواقفك ، واظن حديثك ، جعلني افهمك عن قرب .

وعرضت عليه ان يغيرا المكان ، فغادرا المطعم . كان عليهما ان يدورا

حول نصف المدينة القديمة، قبل ان ينحدرا في ممر بين مقبرتين قديمتين، يسلمهما الى فضاء خال، يحده الشاطيء الصخري . وقفا على الحافة والأمواج تتكسر على بعد امتار تحت موقع سيارتهما. كانا صامتين، يتأملان الأفق، غارقين في هدير الموج ، وخيط خفي، يربط خواطرهما، لكن ذلك لم يدم . وسرعان ما بدأت شفتاهـا تفصحان ، وتفتحت امام قاسم عوالم جديـدة وقال معقبا على ما قالت :

– اني لجد متأثر ، لم اكن اتصور...

قاطعته دون ان ترفع عينيها النائمتين :

– لعل هذا يغير من نظرتك الى الاخرين .

ولمت شعرها بيديها تتعهده، ونظرت الى ساعتها، وادارت المحرك وعند باب الكلية، شد على يدها بقوة، وكأنه يود الاحتفاظ بها الى الأبد ، وظل يتابعها وهي تخطو بين ازهار الساحة ، متسائلا في نفسه : من ؟ من يتصور ان هذه الزنبقة الغضة، تحمل كل هذه الهموم ؟ أحق كما قالت، يجب ان نخرج من ذواتنا لنكشف تلك الجزر المجهولة ، والقلاع المحصنة التي نسميها الاخرين ولنحقق ذلك ، يجب ان نغامر كما يغامر المكتشفون في العادة .

* * *

ظل صوتها يتردد في سمعه ممزوجا بهدير الموج ، وتلاحقت حلقات من حياتها في ذهنه كما سردتها : نشأتها في الأسرة التجارية الموسرة ، من اغنى اسر الدار البيضاء . والدها الحاج التهامي متدين، وعالم من علماء القرويين . كان من الممكن ان يكون سياسيا، لأنه ينتمي الى جيل اغلب افراده قادة، من قادة الأحزاب الوطنية . لكن اندفاعه في عالم التجارة، ادى به الى ان يكون مجرد عامل مساعد ، في الحركة الوطنية . وآلت به مصالح التجارة الى

ان ينزلق من موقف المساعدة الصريحة ، الى الموقف الوسط بين مطالب الحركة ، ومصالح التجارة .

واكدت هنية :

– كثيرا ما اعلن والدي، انه ضد العنف معللا ذلك، بأن العنف لا يضر المحتل وانما يزيده ضراوة ، لذلك كان متضايقاً جدا من انبعاث المقاومة المسلحة . التي كانت الدار البيضاء، اهم مسرح لها. وبالتالي كانت مصالحه معرضة لها، في كل لحظة...

واستدركت هنية الكلام :

– كان يبرر موقفه ، لكننا كنا ندرك الأسباب الحقيقية لموقفه .

وتتابعت الأحداث في ذهن قاسم :

ركب الهلع اوساط التجار على اصوات التفجيرات، ومشاهد الحرائق اليومية ، وجثث المحتلين والمتعاونين، التي تتساقط في كل ركن، في كل لحظة، وكان الحاج التهامي معبرا شديد الحساسية، عن ذلك الهلع... وفي تلك الظروف ظهرت في اسرته شخصية المقدري . كان مجرد تاجر بسيط، في القيسارية بجوار متاجر الحاج التهامي .

وذات مساء، رجع التهامي الى داره مضطربا، ممتقع الوجه . احاطت به زوجه ، والبنون والبنات الذين كانت هنية اكبرهم... لم يقل شيئاً لأحد الا بعد ان خرج الصغار، وبقي منفردا، مع زوجه وبنته الكبرى ، وبدا عليه التردد، كأنه يستوثق من قدرتهما على كتمان السر. ثم اخبرهما ، ان المقدري همس له اليوم بشي ، طلب منه قدرا من المال، مساعدة لبعض المنظمات الفدائية. وعلق على ذلك :

– اعرف المقدري ، لا يمكن ان ينتسب الى اية منظمة...

وجوابا على حيرة زوجه وبنته البادية ، اجاب :

– لم يدع المقدري الإنتساب للفدائيين،ولم يزعم انه يعرفهم ، بل قال انه مجبر على القيام بهذا الدور ، وامتنع عن التفصيل .

وركب الأسرة هلع شديد ، وقالت الزوجة بصوت متلعثم :

– ادفع...

ورد التهامي :

– أدفع ، نعم . لكني أعرف المقدري،واذا كان كاذبا،فسيستمر في استغلالي. ليتني فقط،اتأكد من انه صادق او كاذب . او ان الدفع سيقف عند حد ، بل حتى لو كان صادقا،في دوره فلن يكون صادقا في المبلغ الذي يطلب . ما الذي يمنعه ان يضاعف المطلوب مرات ؟ !

هذه فرصته الوحيدة ليغتني ، وينهض بتجارته ، بل ما يدريني ان المقدري متعاون سري ، وانه يريد ان يختبرني ليوقع بي...

وتراكمت المخاوف . لكن الإتفاق تم على الدفع... ولم يلبث الطلب ان تجدد وتجدد ، ولعن التهامي الحياة ، فقد انقلبت الى مرارة ، واقبل على اسرته اشد اضطرابا ذات مساء . كانت تقاسيمه صارمة الى حد مهول ، لم ينزع جلابته ويسترح كالعادة . وتنهدت هنية،وهي ترمي ببصرها في الأفق الأزرق وقد بدا عليها انها تعيش تلك الأحداث من جديد واستأنفت :

– امرنا ابي بان نكف عن كل نشاط،في الدار السفلى ، لأنه ينتظر زائرا او زوارا ، وامتنع عن كل شرح ، واغلق عليه غرفته فأذعنا،وصعدنا الى الدار الفوقية،ولم يبق مع والدي الا الخادم... وظللنا نترقب حدوث شيءغير معتاد، غير محدد . وقبل آذان العشاء،سمعنا طرقاً على الباب ، وخطوات الخادم يفتحه . كنا نرقب صحن الدار من فجوات الشبابيك ، وتبينا شبحاً مجلبباً

يحادث والدي، ثم تقدما نحو الغرفة . لم نسمع شيئاً، لكن دقات قلوبنا كانت تتسامع بيننا... وخيل الينا بعد حين، اننا نسمع اصواتا ترتفع ، وكأن مناقشة حادة تجري ، ثم ارتفع صوت والدي، ينادي الخادم ، وما كاد باب الغرفة يفتح ، حتى دوى صوت الرصاص متتابعاً من الباب الخارجي . يا للهول ، مر كل شي في لمح البصر ، وهبطنا نتقافز ، كان ابي والخادم، كل منهما غارق في الدماء...

يالأيام الكالحة ، تحريات البوليس المعقدة . واصابة ابي الخطيرة ، والأطباء... كان هولا اي هول...

وعاد المقدري الى حياة الأسرة، من جديد يحوطه الغموض . هل كان كاذباً في المرات الأولى صادقاً في المرة الأخيرة ؟ ام كان صادقاً او كاذباً في الكل ؟

مهما يكن، فإصابة، الحاج التهامي والخادم، تدل على ان جماعة مسلحة كانت وراء الطلب ، وهي في الغالب جماعة فدائية ، لكن من غير المعقول ان تنهال كل تلك الطلبات المتتالية، بمقادير مرتفعة من منظمة فدائية، اوعلى الأصح هكذا كان الحاج التهامي يفكر... ولم يصرح للشرطة بشيء .

واستمرت الغيبوبة بالتهامي، قرابة شهر ، وعندما بدأ يستفيق ، لم يصرح أيضاً بشيء . كان عازماً على ان يطوي هذه الصفحة الى الأبد ، وان يتجنب الأخطار . وطيلة هذه المحنة ، لم يخل البيت لحظة واحدة من المقدري ، فقد بدا الرجل لطيفا ، مهتما بأحوال التهامي وتجارته . واخبرهم انه قد نصح الأب بان يدفع ويتجنب الأخطار ، ارتاب ايضا في الشخص المقنع الذي انفرد به في غرفة الدار ، وكان قد رتب الأمر مع الخادم، للقبض عليه قصد التأكد منه ، دون ان يقدمه للشرطة اذا تبين انه صادق : دوامة، عاشت الأسرة دوارها الصاخب .

ووقفت هنية، تسترد أنفاسها المتلاحقة، وهدير الموج المتكسر كالنحيب، واستأنفت بصوت خافت :

– لم نر بعد ذلك والدي الا مرة او مرتين، فقد تكفل المقدري بإخفائه بعد خروجه من المستشفى مباشرة، اذ بين لنا المقدري ، ان المنظمة ستحاول قتله مرة اخرى ، وكان ابي لا يستطيع الحياة في المدينة او الظهور بين التجار، بعد الحادثة التي جعلته في نظر الناس عميلا، ومتعاوناً... وقل ما شئت من نعوت ، بل ان العيون كانت تزور عنا جميعاً ، وتجنبنا الناس كالمجذومين... وعلمنا من المقدري انه اخفى ابي في مكان آمن، باقصى الجنوب. ومضت سنتان، لم يصلنا من اخباره الا رسائل متقطعة ، واصبح المقدري طيلة الفترة، متصرفا في تجارة والدي ، وقائما على شؤوننا باخلاص ووفاء ، لم نكن نتوقعه...

وفي بداية السنة التالية من اختفاء والدي ، وقبيل عيد الأضحى بأيام ، اخبرنا المقدري، بانه رتب كل شيء لعودة والدي، وانه اقنع متابعيه بحسن نيته واستبشرنا بذلك . لكن رسالة وردت من والدي ، ترفض العودة رفضا باتا، وتطلب من والدتي ان تلحق به، في تارودانت، حيث يقيم ، وان أظل مع جدتي والصغار، لمتابعة تعليمنا تحت رعاية المقدري، وعلمنا اذ ذاك، ان هذا الرجل قد اصبح شريك والدي ، في كل ما يملك...

وتوقفت قليلا اما قاسم فكان جامدا كتمثال . اية احداث هذه ؟

واستأنفت ، وقد خبا اشعاع عينيها :

– مضى الان اكثر من عشر سنوات، على هذه الأحداث ولعلك تتساءل، ماذا امثل في دوامتها ؟

وجدت هنية نفسها، تفتقد حنانا فائضا كان ينصب عليها، وتتحمل الى ذلك مهمة الإشراف على تعليم الصغار ، وتنظيم الدار الكبيرة... بالإضافة الى

تعليمها،وكانت قبيل الباكلوريا بسنتين.كان والدها يحرص على تعليمها تعليماً جيداً . فأدخلها مدرسة اجنبية خاصة . وجعل لها استاذا خاصاً للعربية في البيت ... وبعد لحاق والدتها بتارودانت.بحوالي سنة ، انتقل الجميع الى تارودانت مع الصيف.لقضاء العطلة ولحق المقدري بهم.ايضا لقضاء فترة وجيزة . وهناك جاءت تتمة الأحداث .

وابتسمت ابتسامة مرة . وتساءل قاسم . يستحثها :

– ماذا تقصدين ؟

وردت بابتسامتها تلك .

– اقصد فقط ان مأساتنا.تتخلص في اننا جيل مثقل بأحمال لم نساهم في خلقها ، وبذلك نعاني مصيراً لم نضع خطوطه ... إني اصل الان الى الصفحة التي تتحدث عني ... او عن زوجة المقدري على الأصح ...

وضعق قاسم ، لكنها لم تترك له فرصة واكدت :

– نعم ، المقدري ، هو زوجي...

كان شمل الأسرة قداجتمع في تارودانت.ذات صيف،كما اخبرت هنية. وما كاد المقدري يلحق بهم،حتى سرت بين الأسرة همهمة استغربت لهاهنية. لكن ذلك لم يطل،وسرعان ما اخذتها امها من يدها،مترفقة مبتسمة.وقادتها الى غرفة الوالد، وهي تمرر على كتفها بيدها متلطفة ، وكأنما تعمدت الأم ان يكون الحديث،بمحضر الوالد،كما فكرت هنية فيما بعد ، ليكون تأثيره اقوى . كان الحاج التهامي يمثل دور المستغرق،في تلاوة مصحف ، لكنه في الواقع،كان يتابع كل حركة،وتحدثت الأم عن افتخارها بهنية،لما أبدته في غيبة والديها،من اهتمام بالصغار والدار... واستطردت الى امتداح المقدري، واياديه البيضاء عليهم ، وحكمته في تصريف مال والدها ، في الوقت الذي

تخلى كل الأقارب عنهم... وبعد اللف والدوران ، تفهم هنية انهم قرروا زواجها بالمقدري .

استولت عليها الدهشة، فدارت بها الأشياء والأرض، وهوى رأسها على كتف والدتها فاحتضنتها ، وتردد في سمعها منطق والدها :

– يا ابنتي، هذا خير ما يمكن ان يتم ، لا أستطيع ان اطمئن عليك، ما لم تتزوجي وهذا الرجل خدمنا كما لم يخدمنا احد . تصوري اننا فقراء بدونه ، وانه أكثر من شريك لي ، انه المالك الحقيقي لكل شي ، فلا خير من ان نضمه الينا ، ويصبح واحدا منا...

وفهمت اشياء كثيرة : ان اباها في الواقع يستنجد بها ويستغيث لإنقاذه . ومستقبل الأسرة كله بيدها ، متعلق بقبولها او رفضها... ودخلت في دوامة حقيقية . الزواج ؟ انه آخر شيء كانت تفكر به... والمقدري ؟ آخر شخص يمكن ان يخطر ببالها ! يا لله ، ووجدت نفسها تتأمله بعين الخيال ، وبعين الطفلة التي رأته قبل كل تلك الأحداث ، التي حلت بهم ، عندما كانت تزور والدها في المتجر ، او يزور المقدري والدها ، في البيت لبعض الشؤون .

رأته اذ ذاك، شخصا خاليا من كل اغراء، قصيرا، اسمر، حاد الملامح، اجدب الوجه ، رسمت عليه الحصبى آثارها ؛ وكأنما كان والداها يدركان ذلك، فأكد لها انه رجل الملمات، وهذا يكفي . وجمال الوجه يذوب مع الزمان، وتبقى الرجولة والشرف . وفهمت من آخرين واخريات ان الحب يتولد مع الألفة... لم تكن تصدق كل ذلك ، لكنها لم تستطع ان ترفض او تقبل ، فاستسلمت كأن الأمر لا يعنيها ، وكأن ما بين الرفض والقبول ، هو الإستسلام .

ووجدت هنية انها يجب ان تتأمل المقدري بعين اخرى ، والواقع ان الشعور الذي غلب عليها طيلة الاعداد لذلك الزواج ، هو شعور الضحية في لحظاتها الأخيرة . ولا تستطيع الان، بعد اكثر من عشر سنوات من زواجها،

ذاك. ان تنكر ان ذلك الشعور . ما زال يلازمها . الا انه يزدوج بشعور آخر ترى معالمه كل يوم في وجه افراد الأسرة : انها انقذت اسرتها . وحفظت ثروتها. بعد أنْ لم يكن من الممكن ان يتبقى لها شيء لو رفضت هنية. ذلك الزواج . لكن هذا الشعور ما كان ليميزها عن واقعها بقدر ما يضاعف من حسرتها . لمَ يقدر عليها وحدها. ان تتحمل هذه الأثقال ؟ لمَ لمْ تكن اصغر البنات . وبذلك تفلت من ذلك المصير ؟ لمَ يتدخل المقدري في حياة اسرتها، لمَ لا يكون موقف ابيها مخالفا لما كان عليه ؟ لمَ لمْ ... ؟ ولا تجد جواباً ، بل كل جواب سخافة جديدة. وكم تساءلت. بينها وبين نفسها. هل تحقد على أحد ؟ والعجيب انها لم تتبين حقيقة مشاعرها نحو زوجها، واسرتها بوضوح . كل شيء كان غامضاً. هل سعى المقدري الى طلب يدها. ام دفع الى ذلك بوحي من اسرتها ؟ هل كان امينا مخلصاً في علاقاته بالأسرة. منذ المحنة وقبلها ام ان كل ما حدث جاء بتدبير محكم منه ؟ اما هو فلم يكن يفصح الا عن طبيعة هادئة ولطف ، ولكن ملامحه كانت قاسية من دون شك . اما والدها ، فلم يكن مدفوعاً الا بدافع الحفاظ على ثروته ، وهو بعيد عن مركزها . وكذلك امها . ولكن هل قدرا قيمة ما يمكن ان تعانيه هنية ؟ كانت تتألم في صمت وتتحمل بصبر وهدوء . ولم تكن تستطيع غير ذلك . وتأكدت من حسن ما فعلت لصالح الأسرة، بعد اقل من سنة من حياة الإستقلال ، فقد طلع اسم ابيها ضمن « اللائحة السوداء » التي يجب ان تصادر املاك اصحابها . لكن زوجها حول... كل شيء الى اسمه الخاص بمجرد استشفافه للحادث، وقبيل وقوعه . ولم يكن لأحد ان يعارض ، وهكذا اصبحت هنية ملزمة بالإستمرار في الصبر والتحمل ، او لنقل ، إن ذلك اصبح عندها عادة او غريزة ثانية . ولم يكن في سلوك زوجها من الناحية المالية ما يريب . فوالدها رغم البعد ينفق كما يشاء وبكامل السعة ، ولم يكن من قيد على يد هنية في ان تأخذ

او تدع ما تشاء . . لكنها في الواقع ،لم تكن في حاجة الى كل ذلك ، لأن مأساتها كانت اعمق .

قالت بحدة ، تهز المقود وتضغطه :

– إن كان في حياتي تمردا ، فهو ضد التمرد ذاته . كثيرا ما فكرت بأن كلمات : أسرة ، تضحية ، مجتمع ، أخلاق ... هي اغلال يجب تحطيمها والإطاحة بها . بالنسبة لي مضت تلك الفترة الذهبية التي تزهر فيها القلوب ، ولم اصبح بعد ، إلا زهرة ذاوية تنتظر سموما تعصف بها في آخر العمر .

لم يكن قاسم متأكدا ، من انه سمع كل شيء منها ، في تلك الجلسة على الشاطيء الصخري ام ان خياله يضيف الى ذلك ، ولكنه متأكد من ان خياله ، مهما يجمع ، فسيظل عاجزا عن تصوير انفعالاتها ، وتلوين لحظاتها في بيت الزوجية . وبدا له الزوج عاجزا عن فعل اي شيء لإصلاح الموقف. انه بدوره قد يكون اسير عدة شباك :

حبه للمال ، او الجاه او لعدة اعتبارات اخرى . وبدا له الزوجان ينزلان من سيارتهما ذات مساء ، بعد سهرة خارج البيت . فتحت الخادم الباب فصعدا الى غرفة النوم .

كان المقدري يبدو لطيفاً مؤدبا ، حريصاً على امتاع زوجته ، في حدود ما تسمح به طبيعته ، واشغاله الكثيرة ، واسفاره .

وسبقها الى السرير ، بينما مالت هنية نحو المرآة بعد ان تخففت من ملابسها... وطفا الى خاطرها سؤال امام المرآة : لمن اتزين ؟ لمن أزف ؟ وظلت تتحرك كأنها تنتقي عطرا او مشطا او صبغة ، لكنها لم تتناول شيئا من ذلك... وما لبثت ان توجهت نحو السرير منهمكة ، والزوج يوشك ان يغمض عينيه ، وينفلت سؤال من شفتيه او تعليق مقتضب ، عن السهرة .

وترد هنية عليه دون ان تعي :

– ممم...

ويعيد :

– هل انت موافقة ؟

وتجيب :

– طبعاً . لمَ لا ؟

ويقوم من الفراش مستندا على مرفقيه قائلا باستغراب :

– أحقاً ؟ هذا عجيب !

وتنتبه في شبه ذعر :

– عجيب ؟ لماذا ؟

لم يكن ينتظر موافقتها ، بعد معارضاتها المتعددة . وتتساءل :

– موافقتي على ماذا ؟

– على ما قلت منذ برهة : سأنقل تجارتي الى فاس .

وتجيب بدهشة :

– فاس ؟ ! لا . قطعاً لا .

ويرتخي مرفقاه ، عائدا برأسه الى الوسادة متمتماً :

– اذن لم تكوني منتبهة الي ، منذ فترة وانا احدثك عن المشروع .

وتجيب في غير مبالاة :

– وما فائدة المشاريع ؟

وتلمح صورتها على المرآة المقابلة، فتعيد الهدوء الى قسماتها وتقول مبررة موقفها :

ـ ما دام المال متوفرا ، فلماذا نطلب المزيد ؟ هذا ما اقصد دائما .

ويصدر عن السرير صوت ، لاينم عن شي :

ـ ممم...

* * *

كم حاولت ان تصنع حياة سعيدة ، ما دامت لم تهد لها ، كما يقـــــول الإجتماعيون ! حللت وضعها مراراً، فوجدت خيوط الغربة تنسج كل يوم بينها وبين زوجها . وحاولت تجنب ذلك، فأقبلت على زوجها بكل الضروب ، أملا في ولد، يخرجهما من الوحدة . لكن الأمل خبا، حين اخبرها ذات مساء بأنه لا ينجب ، وإنه متأ كد من ذلك بقرار الطبيب .صدمها ذلك ، والحت عليه في استشارات جديدة ، لم تجد شيئاً . وهكذا انطوت على خيبة ثانية وحديث المرآة يعاودها : لمن اتزين ؟ لمن أزف كل مساء ؟

واستمع اليها المقدري ذات مساء، وهي تعرب عن مللها من هذه الحياة ، فأجاب وهو ينتظر مفاجأة كبرى ، يظهر انه اعد لها نفسه :

ـ اذن نسافر او... سافري وحدك ، حيث تشائين .

وردت بسرعة :

ـ وعندما أعود ، يجد شيء ...

ورفع حاجبيه متسائلا :

ـ ماذا ؟

اجابت بدون تردد :

ـ قررت ان أشغل وقتي بالعمل ، سأدخل التعليم .

وخفت اساريره ، كأنما كان ينتظر شيئاً اقوى من ذلك ، فدار حول نفسه قائلا :

- افعلي ما شئت .
وخرج .

* * *

ومضت بها سنوات في التعليم ، صبت فيها عاطفة زائدة على تلميذاتها، كانت تصرف احياناً اكثر من مدخولها على تزيين الفصل، واقتناء اللعب، والالات الموسيقية والتصوير... وذهبت الى تنظيم وجبات لبناتها وتوحيد لباسهن...

ثم هبط عليها قرار بتعيينها، مديرة لمدرسة اخرى دون سعي منها، واقبلت على مهنتها الجديدة ، لكن املها خاب بعد ذلك، اذ وجدت ان معاشرتها للأوراق الإدارية الميتة ، والمكتب الجامد، تؤدي بها الى التفكير في وضعها... انها في حاجة الى حياة صاخبة حولها ، متجددة ، تضيع فيها ذاتها ، وتفنى طاقتها ، تحرقها طول اليوم ، لتسلمها الى السرير رماداً آخر النهار...

وهكذا فكرت من جديد ، في شي آخر ينسيها ذاتها ومأساتها...

وتردد في سمع قاسم جوابها عن سؤال وهما في الكلية :

- مشاريعي ؟ لا شي ، أحاول ان اشغل نفسي بالدراسة...

— 5 —

ترك قاسم قاعة المطالعة مجهداً ، ومر بحديقة الكلية نحو المقهى . الساعة حوالي العاشرة ، ومعركة نقاش حامية بين الطلبة . وعلا صوت أحدهم :

— انها خرافة ، اية إخوة او سلام ؟ انهم يسخرون منا برفع هذا الشعار. كل يوم يقيمون الف مأتم للحرية والأخوة والسلام . وهذا الرجل بالذات مهما يحط به من غموض ، فمواقفه معروفة من السلام، والإخوة، التي يحاول ان يغشي بها أبصار السذج، وهذه فرصتنا الوحيدة لكي نوضح له كل شيء، لنحتج على محاضرته. إن كان حقاً يريد سلاماً ، فنحن دائماً في سلام، ولا حاجة بنا الى محاضرته، لنمارس السلام . وعليه ان يقول ذلك في بلاده، ولمواطنيه، لا للسذج من شعوب العالم الثالث... ان كان يريد أخوة، فليعلمها لمواطنيه، ليعملوا بها شيئاً من أجل اللاجئين والمشردين بالملايين في فلسطين، من اجل الحرية والكرامة والسلام والأخوة... وليقلها لمواطنيه المتهافتين ، على نصرة الصهيونية ، ليقلها للمستعمرين المهاجرين من كل ركن الى القدس ، لطرد أهلها .

وتوقف الطالب قليلا، كان اشعث الشعر، نحيفا، عرفه قاسم. انه الإدريسي من شعبة التاريخ ، شاب معروف بتحمسه . وتبين موضوع المناقشة ، انه زيارة أجنبي كبير للبلد ، في محاولة للاتصال بكل الأوساط، وإلقاء محاضرات عن مبادي الحرية ، والأخوة والسلام .

واستأنف الإدريسي ، في صوت اقل حدة :

– إن هذا الزائركما نعلم،مرشح لمنصب رئيس الدولة،وعليه ان يعرف حقيقة مشاعرنا نحو بلده،او علينا ان نجعله يعرف ذلك.ويكف عن تجاهله.وهذا رأيي بكل اختصار ، وإني اعرضه عليكم للموافقة .

وتلت ذلك فترة صمت ، كانت الأنظار موجهة نحو عزوز،بصفته ممثلا رسميا في المنظمة للطلبة .

مسح عزوز إحدى نظارتيه،ومال برقبته الطويلة إلى اليسار،كعادته،عندما يود الحديث ، وقال بهدوء :

– مبدئيا،نحن نتفق مع الزميل الإدريسي،لكن الأمور معقدة . والعالم ينقسم الى قوي وضعيف،كما نعلم.والمهزلة ان القوي يمثل دور المسالم ، او داعي السلام،فماذا علينا ان نمثل ؟... يبدو ان الدور الذي تبقى لنا،والذي يجب ان نلعبه في المهزلة ، هو دور المخدوع بدعوة السلام،والمنجذب نحو مبادي الأخوة، مهما تكن مزيفة،او كاذبة . وهذا لا يمنعنا،من ان نعمل على توضيح آرائنا، وعلى اتخاذ المواقف التي تمليها الأخوة الحقيقية،والسلام الحقيقي، وبدلا من ان نحتج ونعارض على محاضرة هذا الرجل ، علينا ان نستجيب للدعوة و نرحب به،ونتصل به،ما دام يطلب ذلك . لنكلمه بمنطقه.اننا لا ننخدع طبعاً،لكن الطريق طويل... واسمحوا لي ايها الزملاء،ان اوضح لكم بمثال، على مفهومهم للأخوة والسلام. وهذا يؤيد ما ذهب اليه زميلنا الإدريسي ، وان كان الموقف الذي اقترح ان نتخذه ، مخالف لموقف زميلنا .

وتوقف قليلا ، ينظر الى الحلقة المغلقة المحيطة به ، واستأنف :

– لقد حدثني مرة بعضهم،عن مبدإ الأخوة كما يفهمه،وعن السلام، فذهب الى ان الأخوة،تفرض علينا كعرب وكمسلمين ، الا نترك اخواننا المشردين في الخيام،معرضين لويلات الطبيعة،وللبؤس،والحرمان،وان علينا ان نؤويهم في

ارضنا الفسيحة ، وان نضمهم ونحن ملايين ، وان ننزع عنا العنصرية العرقية او الدينية...

طبعا ... أجبت بأننا لسنا عنصرين، وان اليهود عايشونا منذ قرون ، وان الصهيونية هي الحركة العنصرية العرقية والدينية، وعرضت كل الوقائع والحجج، المعروفة، التاريخية والسياسية، بل وأوضحت ان الصهيونية فوق كل ذلك، حركة استعمارية... فماذا كانت النتيجة ؟ لا أزعم أنه اقتنع حقيقة بمنطقي ، ولكنني أؤكد انه بدا مندهشا، كأنه لم يفقه ذلك من قبل ،وابدى بعض التفهم لموقفنا... قد يعارض بعضكم، بأن ما بدا عليه انما هو جزء من اللعبة! ليكن، فلا سبيل لنا للإطلاع على السرائر .

وتوقف مرة اخرى ، ونظر الى الإدريسي مبتسماً وقال :

ــ لكل ذلك ، استسمح الزميل، اذا خالفت رأيه في ان نحتج، ونعترض على محاضرة هذا الرجل، او الحوار معه ، وادعوه الى إجابة الدعوة، لشرح موقفنا لا من قضية السلام والإخوة في فلسطين، بل في العالم اجمع... وهذا ما سأعرضه في جمعنا العام للمصادقة...

وبدا آن منطق عزوز الهاديء، يجد طريقه الى الطلبة، في حين بدا ان كلمات التهدئة ، الموجهة الى الإدريسي ، لم تزحزحه عن موقفه ، فقال متهكماً :

ــ اذن ما علينا الا ان نرحب بالزائر ، ونصفق له . بل علينا ان نفعل ما هو اكثر من ذلك .

وتوقف متطلعاً الى وجوه الطلبة ، وحدق جيدا في وجه معين وقال بتهكم :

ــ اقول ما علينا الا ان نطلب من صحافيينا النزهاء، ان يدبجوا مقالات عن هذه الزيارة ، ويشيدوا ببلد الزائر المسالم ، داعية الأخوة .

كان واضحا انه يعني غناماً بكلامه... لكن هذا، لم يبد عليه اي تأثر بذلك...

فأخرج الإدريسي صحيفة من جيبه، ونشرها وهو يشير الى صفحتها الأولى، قائلا :

– ... بل ان الموقف الذي يقترحه الزميل عزوز، ربما كان مكتوبا هنا... يا لها من عبقرية !

وتطلعت بعض الأعناق نحو الصحيفة . اما غنام، فقد كان ينفث دخان سيجارته هادئاً .

ورد عزوز ، على إشارة الإدريسي بحدة :

– تعلم جيدا، ان لا علاقة لنا بالصحيفة ولا بالمقال، بل نحن ندين لهجته، ومضمونه... ولذا فليس من حق احد ، إقحام مثل هذا الموضوع...
ان لنا مسؤولية ومبادي، نحترمها ونعمل بوحيها، وهذا يكفي... لم يكن عروز ينظر الى احد، وهو يتحدث اما غنام، فلم يزد على ان رمى بعقب سيجارته عند قدميه ، وتراجع عن حلقة الطلاب كأنه يقول :

– لاأريد مشاغبات ... سلوكي الشخصي ، يهمني وحدي .

وقام عزوز يقول :

– لنؤجل هذا الموضوع...

وتفرق الطلبة ، بينما توجه عزوز نحو الإدريسي ، واضعاً يده على كتفيه ، واتجها نحو الحديقة يتساران .

* * *

اعلنت الوالدة، مقدم عزوز فنهض قاسم لاستقباله . جلسا متقابلين . كانا يشتركان في اكثر من صفة : الجدية والهدوء ، وان كان عزوز يعتبر متأخراً عن رتبة زميله في الدراسة، باعتبار مهامه العديدة في منظمة الطلبة ، والتي تأخذ أكبر قسط من وقته ، فتدفعه الى التغيب عن عدة دروس ، وتعرضه بالتالي إلى سخط من بعض اساتذته . وكان اهم ما يميز عزوزاً عند قاسم : صراحته

— 7 —

تفقد غنام ربطة رقبته،ومر بيده على مقدم كتفيه و صدره ، يتفحص هندامه بحركة جعلت قاسماً، يفيق من شروده وحملقته في اناقة زميله،وحين دخلت الوالدة بالشاي،مد غنام سيجارته لقاسم :

— تبدو شاردا...

وسحب قاسم السيجارة معتذرا .

— لا مؤاخذة، هندامك متناسق...

هل يقول له اكثر من ذلك ؟... ان عزوزا كان في نفس الجلسة ذات يوم بحذاء مثقوب ومعطف مستعار ؟

وتساءل غنام مبتسماً :

— لعل زيارتي تفاجئك !

— ابدا .

واستمرت ابتسامة غنام على حالها وهو يقول :

— كالاخرين ، أنت لا ترتاح الي . لكنك هادىء متزن،وتفهم . وهذا ما يدفعني الى احترامك .

لم يرتح قاسم لهذا الاطراء.فهو وإن كان يبدومخالفاً للاخرين فيمظهره. لا يود ان يعتبر ذلك ، مخالفة جوهرية ، تستثنيه منهم ، من طموحهم وآمالهم ، من متاعبهم ومشاكلهم .

ورد قاسم :

– شكرا . لا داعي للمجاملات بيننا .

ونفث غنام دخانه . وهو يستنكر :

– مجاملات ؟ أبداً . بل ما جئت الا لأكون صريحا معك . اعلم أنهم لا يرتاحون إلي . ولكنني أنتظر ان تفهمني . أنت على الأقل .

وتململ ليدخل الموضوع . وهو يضحك :

– جئت من أجل بعض الكراسات ... انت المرجع دائماً ... بل إن أمكن ان انتفع ببعض التلخيصات لما تطالعه خارج المحاضرات...

لم يخف قاسم بعض استياء :

– بكل سرور ، وان كنت لا أقرك على التقصير . في المطالعات الخاصة...

لم يبد على غنام انفعال ما ، وقال :

– الحق معك . لكني كما تعلم فقير... وتفكيري في مستقبلي . في المال ضرورة ملحة ... ارجو ان تفهمني .

– أفهمك ؟ هذا سهل . لكن... لماذا هذا الاستعجال ؟ وهذه الاناقة والكماليات تثيرني فيك ، ويخيل الي انك تدفع ثمنها باهظاً من راحة ضميرك.

تساءل غنام في استغراب ، وإن ظل هادئاً :

– راحة ضميري ؟ !

فكر قاسم، بأنه لن يكون مرتاحاً في وضع غنام ، وان الفقر خاصية اساسية لطالب العلم ، وان... واستأنف غنام :

– لا داعي لحديث في الضمير... اؤكد لك اني مرتاح، وأني لا أدرس حبا في العلم ... بكل صراحة ، كما قلت لك ، يهمني المال ... الحاسة السادسة

للإنسان،كما قرأت مرة... والمفاهيم الأخلاقية بالنسبة الى، تجريدات لا واقعية لها ، وغيرها من المباديء أيضاً...

وتوقف ليقول :

– اترى صراحتي تؤذيك ؟

ونفى قاسم ذلك ، وهو يعلق على ما قال زميله :

– بمناسبة الواقعية... الزميل عزوز يتحدث باسمها أيضاً .

واستفهم غنام :

– ماذا تعني ؟ ...

– أعني أنكما نقيضان ،فكيف تلتقيان في الواقعية،والإدريسي أليس واقعياً ؟

وبدت صديرية غنام المنمنمة ، وهو يفتح زر معطفه قائلا :

– واقعيتي تهمني وحدي،وكل ما أفكر به او أنجزه ،كذلك... اني لا أختط لأحد غيري... ما رأيك ؟

وانزعج قاسم للسؤال . الحكم على الناس يرعبه . ربما كان لا يملك القوة الكافية لمحاكمة الاخرين ، ربما كانت تنقصه الثقة بما عنده ، لكنه لا يحتمل ان يتعسف على أحد .

وكأنما عزم غنام على إنهاء هذا الموضوع ، فقام قاسم الى المكتب يفتش كتباً،وأوراقاً من اجل زميله . كان ظهره الى غنام ، وتناهى إليه صوت زميله

– وجئت لشيء آخر يا قاسم...

والتفت قاسم، كأنه سيواجه عزوزا يطلب منه حذاء صالحاً،كما حدث ذات يوم ، لكن صوت غنام لم يكن متردداً كذاك،ولا متلعثماً ، وصاحبه مسترخ... رجل على رجل ، وحذاء لامع... وجوارب رقيقة شفافة...

وتساءل قاسم :

- ماذا ؟

وقعد قبالة غنام، وهو يضع الأوراق على المائدة الصغيرة المستديرة بينهما.

قال غنام :

- كلمتك بصراحة ، لأني خمنت رأيك في ، وأردت أن نبني علاقتنا على وضوح في المستقبل .

علاقة ومستقبل؟ وتذكر قاسم محاولات غنام لربط علاقته به منذ تعارفا، لكن مزاجهما كان مختلفاً ، او أن أحدهما على الأقل ، لم يكن يرتاح للاخر . واردف غنام :

- أنت حازم ومستقيم . وقادر على العمل اذا اردت .

لم يستطع قاسم ان يتبين وجهة غنام، من هذه المقدمات، واستأنف غنام :

أنت مثلي فقير . ومواهبك واضحة... وأمامنا فرصة ذهبية لعمل مشترك ، أظن أنني وفرت عليك الكثير منه ، ولم أترك لك منه . الا ما يتفق مع مبادئك .

وبدا على قاسم، أنه لم يفهم ولا يريد ان يتكلم ، فاستأنف غنام بملامح جد :

قد أكون في رأيك انتهازياً او نفعياً... بكل صراحة... وأنت في رأيي مثالي او غير واقعي، هذا هو الموقف بصراحة... تتساءل عن الحقيقة ؟ لا تهمني . إنها شغل الفلاسفة والمختطين للاخرين، أما أنا . فكما يقول مثل إنجليزي : اجذب صنارتك في الوقت المناسب .

تلمس قاسم كأسه . كان قد برد . وقال :

ما الموضوع بالضبط ؟

وطفق غنام يشرح : منذ لقائه لقاسم ذات مساء ، عند باب المنصوري . كانت تلك فقط مناسبة اوقدت في ذهنه الفكرة ، اذ كان دائماً قبل ذلك يبحث عن مشروع ما ، ويبحث بوجه خاص على من يساعده . وكان بوده ان يقدمه صديقه الى المنصوري ، مادام يملك مفتاح هذا الباب . لكنه أدرك ان قاسماً يتردد ، وشخص كالمنصوري ورقة رابحة . ولا بد من العثور على مفتاح .

ولم يخف قاسم دهشته واستغرابه ، متسائلا :

– أحقاً تعرفت على المنصوري ؟

أجاب غنام في حركة المستسلم :

– ما كان لي ان أنتظر ، او ... أحرجك ...

واستأنف حديثه . وجد ان المنصوري رجل طيب وخطير في نفس الوقت. ثروته ، مكانته في المجتمع ، إحسانه المعروف ... كل ذلك خطير ، ويتيح فرصة ثمينة لعمل شيء ...

وأكد غنام :

– تحدثنا عنك في جلستنا . المنصوري وأنا .

وبدت الدهشة على قاسم ، فطمأنه غنام :

– لا تنزعج ، كان الحديث مصادفة فحسب ، بمناسبة المشروع .

– وتناول من محفظته صحفاً ، من الجريدة التي يعمل بها ، ناولها لقاسم وهو يقول :

– انظر الصفحة الأخيرة .

وقرأ قاسم عدة أشياء . صفحة « في خدمة المجتمع » ، وعناوين ضخمة رجال يحاربون الفقر... الإحسان حرب على الفقر...

وعدة صور للمنصوري.ولغنام في استجوابات مستفيضة ، ومشاريع لخدمة الفقراء .

ورفع قاسم بصره دهشاً :

ــ اذن تعرفتما بالقدر اللازم .

ولم يبد على غنام اهتمام ، وهو يقول :

ــ كما ترى ، الصحافة مفتاح الكل . ولذلك اخترتها...والحاج المنصوري يتوج لأول مرة على صفحاتها... ونحن الان صديقان وسنستمر على ذلك .

ولم ينكر غنام أنه استفاد من المنصوري ، وأنهم بصدد عمل كبير .

وتساءل قاسم :

ــ من هم ؟

ــ أنت . نعم أنت وأنا وآخرون... سننظم عملا كبيرا بمساعدة المنصوري... عملا احسانيا وتجاريا في نفس الوقت ...

واستمع قاسم الى التفاصيل بهدوء ، وقد غابت عنه الدهشة الأولى . وفهم كيف اقتنع المنصوري،بأن إحسانه يجب ان يكون اعم وأشمل ، وكيف هداه غنام الى فكرة تأسيس مشروع إحساني تجاري ، ينخرط فيه كبار الناس وأثريائهم،وتفتح أسواق في كل إقليم بأثمان منخفضة للفقراء . وأبان غنام للمنصوري ان هذه الأسواق فضلا عن احسانها مربحة ، وسيكون المشروع موزعاً حسب الأقاليم ، لكل منها مدير يشرف على الأسواق والمتاجر ، يختار من أمهر تجار الأقاليم... كان المشروع مدهشاً طريفاً ، زعم غنام أنه استوحاه من إحدى المنظمات الإحسانية في الخارج ، وأكد :

واهم ما في هذا العمل،أنه يجب ان يرتبط بمنظمات أخرى في الخارج، لهدف لغايات متشابهة او متقاربة . فلذلك يساعدنا...

واطرق قاسم مفكرا فيما يسمع ، بالطبع كل شيء يساعد . وربما كانت زيارة رجل السلام الكبير المزعوم أيضاً ، مناسبة لافتتاح هذا العمل .

ولا بد ان يكون غنام ، أعد الأمر لذلك ...

وتساءل وهو ينظر الى غنام :

– ربما فهمت المشروع بالإجمال ، لكني لا أجدك فيه واضحاً ، ويخيل الي أنك لم تعد نفعياً بالقدر المناسب ...

وقاطعه غنام ، كأنه قرأ فكرته بأتمها :

– تقصد ان هذا التعب لا يناسب المردود ؟ أؤكد لك أنهما سيكونان متناسبين.

أنت تعرف الثروة التي يمكن ان نتصرف فيها حسب المشروع . وستنشأ تنظيمات أخرى فيما بعد ، وعندما تشتد المنظمة يمكن القيام بعمل آخر أهم بكثير... لا بد من مراحل ...

وتساءل قاسم عن دوره، الذي اختاره له غنام . دوره ؟ لقد اختار له ان يكون فكر المشروع ، ومخططه . ويقوم غنام وصحافته بالباقي . قدر غنام ان مواهب قاسم صالحة لمثل هذا العمل ، بانطوائه ورزانته . وأكثر من ذلك، انه يصلح لأن غناماً يركن الى استقامته ، ولا يخشى منه انحرافا او خديعة ، انما يجب إقناعه . وهذا ما يحاوله غنام وهو يقول :

– لا أنكر عليك . مثل هذا العمل، قد يحتاج الى ما قد يبدو مناقضاً لمبادئك او مثاليتك . لا أنتقدك الان، وإنما أؤكد لك انك لن تقوم إلا بما يناسبك ، والباقي علي وعلى الاخرين . هناك محامون ومثقفون وأثرياء الى جانب المنصوري ، ولن تخسر شيئاً بل سنفوز بكل شيء...

وظل قاسم صامتاً . لقد قدر من زمان، أنه لا يلتقي مع غنام في شيء . اتضح له ذلك بنظرة بسيطة، فهل أخطأ ؟ إنه الان يتأكد من صدق نظرته الاولى.

ونفوره من مشروع مغري كهذا، يؤكد ذلك . لكن أهو ينفر فعلا من هذا العمل لطبيعته، ام لمجرد ان غناماً هو المحرك له ؟ ليته يتأكد من ذلك . لكن المشروع وغناماً شيئاً واحدا . لم يكن لمثل هذا المشروع من مدير غير غنام ، وإذن فلا داعي لتصور يفصل بين غنام والمشروع . لكن الشخص الثالث يبدو اكثر إثارة للعجب : المنصوري ، اهو الطيب المغفل ام العنكبوت المتربص ؟

ولم يهتد قاسم الى مخرج من أفكاره، وجاء صوت غنام من جديد :

ـ إن خيوطاً ما، تربط بيننا . اختلافنا نفسه يربط بيننا . قد نتكامل وكل ما اريد منك ، هو ان تفكر تفكيرا حرا شخصياً . تحرر من كل ما تعلمته في الكتب ومن المجتمع ، واسأل بصراحة ، وأجب بمثل ذلك . الا ترغب في حياة سعيدة ؟ لن تكذب او تسرق ! او تؤذي احدا ، وحتى ان لزمت هذه الأشياء فسيقوم بها غيرك... اما انت فستمارس عملا بعيدا عن كل ذلك... بعيدا حتى عن الأضواء اذا أردت...

وساد الصمت . غنام ينتظر الجواب . وقاسم يفهم كل شيء بالإجمال .لكنه يحتاج الى ثقة بما يجب ان يقبل عليه . أيكون الرباط حتميا بينه وبين غنام ؟

وحضرته صورة عزوز . ماذا يكون رأيه في ذلك ؟ والنوري، ماذا يقول لو اقترح عليه مثل هذا العمل ؟

حقاً إنه يفكر بعقول غيره ، كما أدرك ذلك غنام، وكيف ينفصل عن مثل ذلك التفكير ؟ هنية تفكر بالاخرين مثله ، وربما بعقولهم ، لكن على نحو آخر ... وأفاق على سؤال غنام :

ـ لعلك الان ، عرفت ما يجب ان تعمل ؟

إنه ما زال يلح بطلب الجواب ، وقاسم لم يعرف بعد ما يجب ان يعمل. بلى ... وقال غنام

– إني اعتمد عليك و سأباشر اتصالاتي...

وأحس قاسم بالحرج،وغنام يقوم مودعاً . هل يكون ذلك آخر الكلام؟ أهو القبول إذن ؟ أهو الرفض ؟ وقال أخيرا :

– لا أعدك بشي .

ورد قاسم مبتسماً :

– وهذا وعد منك ايضاً . على كل ، أنت لم ترفض ، وهذا مشجع لي .

ليته يكف عن الإلحاح . وقاسم نفسه،يستغرب من نفسه هذا التردد الذي انتابه. كان يتصور ان أقل شيء يأتيه من جانب غنام،يرفض بسهولة. واستمر على هذا الشعور طوال جلسة غنام معه ، لكنه في الأخير لم يقرر بعد . وترددت في ذهنه نصيحة غنام : فكرْ تفكيراً شخصياً... دعْ ما تعلمته... ليكن . وسيفكر بل لعله قد انتهى من تفكيره ، وهو يتسلم من زميله أوراقاً ، وصحفاً أخرى، تساعده على فهم المشروع كما قال غنام .

— 8 —

« صديقتي العزيزة :

أي فراغ تركت ؟ هل تدرين ان الوجود بدونك هول مرعب ؟ والناس ، أخشاب على نوابض، تنطبشكل مأساوي مضحك ؟ ليتني أضحك ولوفي مرارة. والنوم عندما يجفو ، يصبح الإقبال على الفراش مغامرة لها حساب طويل... والليالي أشباح مفزعة ، والصمت مدفن عميق لخواطر الخير . وفضائل الصبر والتجلد حماقات المستضعفين . لم أكن أعلم أن الكتب على هذا القدر من السخافة . وخطة الدراسة ، وطريق المستقبل كريه . الزمان صفحة كالحة يضيئها يومي الموعود معك ، كأمل كاذب في خاطر محتضر سرعان ما يخبو... ومحياك لو يطل في هذا الخضم... لو يرن وقع خطواتك على الأرض الموات... صديقتي العزيزة... »

وتوقف القلم في يده ، يجب ان يمزق الورقة ، ويبحث عن لهجة أخرى ، ما هذا الهذيان ؟ بأي حق يخاطبها على هذا النحو ؟ يحبها ؟ ليكن . ومتى كان الحب هكذا، عملية ذات طرف واحد؟ وهل للحب معنى في موقفهما ؟ ما أحوج البشرية الى مراجعة مفاهيمها عن الحب والتضحية وسائر القيم . مهمايكن، فليس من حقك ان تكتب ما كتبت، ولا أن تفعل ما تنوي . دعْ هنية في سلام وابحث لنفسك عن مثله. رفقة عابرة انتهت، ولتعد الى طريقك القديم . وأي طريق ؟ شرودٌ وقت المحاضرات ، ويد تخط في غير رقابة... خطو مسرع نحو كازابلانكا...ضجة السكر، وروائح السمك والشواء ، طرق متصل على باب

عائشة... لم يعد لأي شيء حلاوته . أي معنى لحياة تفتقد الحب والأمان . أي طريق لك بعد اليوم . ؟

والأخشاب الادمية ما تنفك تنط في طرق المكر والخداع . لا تستقيم . والحقيقة مطلب المغفلين والمعتوهين . طريق غنام ؟ يا للمهزلة الكبرى . ان تكون على يقين من سريرة شخص، وتخدع نفسك، تمديدك في يده، لقطع مرحلة من سفر طويل مجهول . أية كبوة للضمير والمثال ؟ ... ويؤكد لك غنام : لن تقوم الا بما يرضي ضميرك . أية خرافة وأي هذر . والكثيرون الاخرون ، هنية وعائشة ، أخوك والوالدة ، ماذا يمثلون أمامك ؟ والمنصوري صفحة فريدة، تطالع على مهل في مدى دهر . من أي مزيج متنافر يصاغ هذا الكون ؟ عزوز ورجال السلام والجوارب الأنيقة الشفافة ، والحذاء المثقوب ، ماذا أنت من كل هذا؟ ان يكن غنام واضحاً صريحاً فهو علامة الخطر على منعطف الطريق ، وبذلك ينقص إشكال الغموض ولو مرة ، ويكون للتاريخ معنى . والزيف آفة الوجود . والطيبون في الشباك كالفراش المتهافت حول النور ، والطيبون الاخرون...

بأي جهد وبلبلة فكر، يجب ان يعود الى الكتاب ؛ نار لا يتحملها . والكتاب القديم فقد قوته فهل يحفظها النوري ؟ وعزفت رجلاه عن طريق الدراسة . ماذا ينتظر أن يسمع ؟ لن يرد الصدى بعد اليوم . وعبثا بلاغة المحاضر وحسن البيان . والحكيم... والفلسفة ممارسة الموت... أي موات بين جدران أربعة ؟

ودلف قاسم تحت الإسم العريض للمؤسسة الحكومية الكبيرة ، حيث مكتب النوري. قام الشاوش عن كرسيه قرب الباب كعصفور ساذر، أجفلته حركة الباب. عينان غائبتان لشيخ نحيف قصير، سأله قاسم عن السيد النوري . لم يبد على الشيخ أنه يقظ او نائم ، كان غائباً . وأشار بدون كلمة إلى ممر على اليمين . وفتح قاسم، اول باب لظبية او ربية شقراء ، نفثت من دخان سيجارتها ببرود. قائلة :

- « أكوتي » .

فتح الباب الموالي . فتاتان بالجلباب ، إحداهما تطبع بآلتها والأخرى تتلفن :

- نعم ؟

- الأستاذ النوري .

- عندك موعد ؟

- لا .

- ما الموضوع ؟

وأفاق على السؤال . نعم ، ما الموضوع ؟ إنه لا يدري . وقال :

- شخصي .

ونظرت الفتاة الى صاحبتها كأنها تستشيرها ، ثم مدت له بطاقة يملؤها . ثم غابت بها في باب جانبي لتعود مشيرة له بالدخول . وجد نفسه في مكتب بسيط ، بدا غير مناسب لضخامة البناية،وأهمية المؤسسة . وفسر ذلك بتواضع النوري الذي لا يفارقه . وأخذه ترتيب المكتب وتنسيقه . وبضعة كتب على الرفوف وكراسي ، تكون نصف دائرة حول المكتب ، فنظر إلى الانسة التي أدخلته متسائلا، فابتسمت، وهي تشير إلى باب جانبي نصف مفتوح قائلة في شبه همس :

- لحظة . إنه يصلي .

ومضت بضعة دقائق ، خرج بعدها النوري،من الباب الجانبي الصغير بقامته المديدة النحيفة ، يتهلل وجهه إشراقاً . وظل ممسكاً بيد قاسم،بعد أن أخذ كرسياً إلى جانبه . كانت عيناه الضيقتان تتفحصان ملامح قاسم،وهما

يتحدثان عن مصادفة ذلك المساء ، وعن السنوات التي فصلت بينهما . • انقطاع الرسائل بينهما، منذ التحاق قاسم بالعاصمة . أما النوري فقد تقلب في عدة مهام وأقاليم ، ولم يكلف بمهمته الجديدة في العاصمة إلا منذ شهور . ولم يجد قاسم غضاضة في ان يعلن لأستاذه القديم، أنه يتخذه مثالا ، وأنه يدين له بكل نجاح . واعتبر النوري الحديث مجاملة ، لكن ملامحه اكتست صبغة الجد ، وهو ينصت إلى حديث قاسم، يخبره بأنه اكتشف ان صوت الحكمة الذي بهره في الجامعة ، لم يكن راجعاً إلا لتأثير أستاذه النوري وسلوكه ، منذ الدراسة الثانوية . وأكد النوري أنه بالفعل إذ ذاك كان شديد الإغراق في دراسة الحكمة القديمة ، وعالمها الجميل . ثم توقف قليلا خافضاً بصره ، كأنه يتهجى سطوراً في الأرض ، وحين رفع رأسه ، كانت غمامة خيبة تظلل وجهه وقال :

– عالم جميل حقاً... ما اسرع ما يعشقه المبتديء، يبهره، لكنه سراب ، هش ، سرعان ما يتحطم... أما السلام الحقيقي فبعيد...

وافق هذا هوى قاسم . الم يكن هو رغم تجربته القصيرة بالحياة ، يجد كل الإعجاب ، بفيض زاخر من المفكرين فوق اللذة والألم ، فاهتزت الأرضية تحت قدميه ، ولم يعد يجد طعماً لذلك ؟ اين موقع الطمأنينة والسلام، في عالم يقدم فيه البعض رقابهم قرابين في غفلة وبلاهة ، وآخرون يقتنصون في مكر ودهاء . بعض يحمل أوزار غيره ، وبعض يثقل الغير بأوزاره . فأين الطمأنينة والسلام ؟ ألف مكيدة تحاك ، والفضيلة الحق تدفن طرفة كل عين ، في بمدح المعمور... والجوع والتخمة والإملاق والجهل الغافل والعلم الماكر وتبرير كل شيء . أين موطن قدم مطمئنة في كل هذا ؟ أحقاً غفل الحكيم عن هذا الخليط، ام أن عالمه كان منسجماً سعيداً فلم يمارس الإختيار ؟

كان باديا أن النوري يتابع خواطر تلميذه القديم، في اهتمام منكساً رأسه، وعندما رفع بصره ، كانت شفتاه تتمتمان بشيء، ويده تعبث ، تتحرك في جيب

بذلته الرمادية الأنيقة . وبدا لفترة كأنه خارج الغرفة، لا يرى قاسماً، ولا يسمعه ، بل خارج العالم ، عيناه مفتحتان على غير مدى ، مرهف السمع كأنه، يلتقط أنغاماً خافتة ... وبعد لأي أفاق من سرحته . كان قاسم قد توقف منذ برهة ولم يأت بحركة احتراماً للرجل .

قال النوري وقد هدأت قليلا حركة يده ، في جيب سترته :

– أنت إذن مهتم بالموضوع .

– أي موضوع ؟

وازداد النوري ابتساماً :

– الحقيقة . الأمن والسلام والخير والطمأنينة ، وكل ما يحفل به عالم الحكيم القديم .

وأكد قاسم أنه مهتم ، وأدرك النوري ، ذلك من لقائهما ذات ليلة . لهجة قاسم واضطرابه ، وربما الرائحة التي كانت تفوح في ذلك المنعطف، والتي تشممها، النوري وأشياء أخرى لم تكن لتغيب عن بصر هذا الرجل ، وقال قاسم :

– إني في دوامة عذاب ، وحيرة ...

واستبشر النوري بذلك . هذا ماخمن، وهذا ما اراد . الحيرة الدوامة شيء أكثر من الإهتمام . الإهتمام حركة عقلية ، اما الحيرة فهزة في الأعماق، تحتاج الى علاج يحيلها هدوءاً وسلاماً . قبل حدوث الحيرة، لا ينفع شيء مما يريد النوري، اما معها وبعدها ، فقد يستطيع الكثير . وتمتمت شفتا النوري مرة أخرى، بينه وبين نفسه . وتابع حديثه مفرقاً بين الهزة العابرة، هزة الفضول، وبين تجربة الحيرة الحقيقية ، والاضطراب العميق ، وأكد قاسم :

– قد تكون حيرتي واضطرابي ، أعمق مما تتصور .

وابتسم النوري مرة أخرى . الحكماء لم يكونو إلا من ذوي الهزة العابرة ، هزة الفضول . تجاربهم تظل في مستوى العقل والحس . حتى من يدعون أكثر من ذلك منهم ، لم يتعدوه ، فأعطوا للناس كلاماً جميلا متناسقاً ، ورسموا الحقيقة بخيالهم لا كما هي . وبدأ النوري بحكاية طويلة ، حكايته عندما كان هائماً في حيرته، تكتنفه الدوامة كقاسم، او أكثر من قاسم . حاول ان يصر فها بدراسة الحكمة ، واللغات وتعاطى الموسيقى والفن ، واعتقد الجميع أنه عبقري ناجح سعيد ، لكن الخيبة كانت تعمره ؛ كلما أدرك شيئاً بدت له تفاهته ، وتساقط كل شيء متهاتفاً حوله . ما بناه العقل يهدمه العقل نفسه . وحتى الكبار الذين نبالغ في تقديرهم ، لم يقدموا له غير الكلام . وجذب النوري مجلداً ضخماً من الرف تصفحه وهو يقول :

– هذا المجلد تجربة رائعة . « الفتوح المكية » . لكنها كلام تافه، بالغ حد السخافة ، إذا تجلت لك الحقيقة...

وقال النوري أنه لم يعد يحزن على كتبه جميعاً، لو أحرقت برمتها ، وهو الولوع بالكتب . لقد تبدت له حجاباً كثيفا بيننا وبين السلام الذي ننشده . إنها تلهيك عن نفسك فترة ، اما عندما تعصف الدوامة بك ، فلا تفيدك بشيء. وفي مرحلة من حياته العاصفة ، مارس النوري صيد العصافير . يبدو ذلك الان سخافة . لكنه كان تجربة قاسية بالنسبة لمن ينشد أي شيء يخرج به من دوامة الضجر والحيرة والقلق... دون جدوى، ولا صيد السمك أجدى...انها نارمحرقة، ولا قراءة القرآن والصلاة . كل شيء يعود إلى نقطة البداية، وتوقف النوري قليلا، يتأمل صاحبه، ويعد حبات المسبحة التي كانت تعبث بها اصابعه في الخفاء، وقال :

– وعندما هدتني العناية الإلهية للخير الحقيقي ، جاء ذلك في غاية اليسر، وندمت على ما ضيعت من طاقات .

منذ ذات يوم ، عند ما عين النوري في هذه المؤسسة ، وأزمته في أقصى حدتها كان قد انتهى من صلاة العصر ، في أحد مساجد المدينة ، وقام لينصرف كغيره من المصلين ، وإذا فتى يتصدر المسجد منادياً ان اسمعوا يرحمكم الله . وظن النوري أنه لا يختلف عن غيره ، من الواعظين الذين يكررون كلاماً مبتذلا طلباً للرزق ، لكن أذنه مع ذلك علقت بالفتى الذي كان يخالف كل من عرف من أمثاله ، لم يكن مجلبباً او معمماً ، بل فتى منظم الهندام يرسل لحية خفيفة ، ويتحدث عن ضرورة اتباع التدرج على يد الشيخ... وكان النوري قد قرأ شيئاً من ذلك، في كتب بعض المتصوفة فلم يهتم به . إلا أن تأكيد الفتى على ذلك كان مغرياً بطلاقة ، وثقة ،بما يقول وكان النوري قد جرب كل شيء ، فلمَ لا... الشيخ ؟ وأقبل على الفتى بعد ان انتهى من وعظه، غيرواثق بأنه سيصمد لأسئلته ، فما راعه إلا الصوت الواثق الذي لا يدعي علماً بكل شيء ، ولكنه يدعو إلى تجربة .

وتوقف النوري ، كأنما تخوف أن يثقل على قاسم بتفاصيله قائلا :

- أكلمك الان بعد أن رسخت قدمي في هذه التجربة، واهتديت إلى السلام الحق ، والأمن ، والطمأنينة .

لم يبد على النوري تلهف لإقناع صاحبه بطريقته . بل بدا كمن يورد خبراً غير مهتم بنتائجه ، وعندما بدا قاسم مأخوذا بصدق لهجته، اكتفى بأن يدعوه الى مشاهدة الشيخ ومعاينة التجربة . ولم يجد قاسم مانعاً في مثل حاله . ألم يسع هو إلى النوري ؟ ألا يعتقد في دخيلته ان عبقرية أستاذه القديم ، إن لم تجد حلا لشيء ،فلن يكون له حل على الإطلاق ؟ وإذا كان يحتمل دوامة الحيرة ،فليحتمل طريق البحث عن مخرج، وليمض فيه إلى النهاية... وصدق النوري ضمانة كبرى في الطريق ، لا تقارن بهذيان الوعدودي او عزي غنام ...

لكن عذاب هنية لا نظير له ، وعذابه بذكرياتها . ترى كيف كانت حيرة النوري، قبل اهتدائه الى ما هو فيه ؟ أتكون مثل حيرته هو الان ؟ إن كان كذلك فأي ترياق سحري سيتجرعه ! لكن حكاية النوري وحيرته ليست وحدها . هناك الشهود : هذه الأوروبية الشقراء التي في المكتب المجاور ، كانت فاجرة داعرة ، ودارت عليها الدوامة أيضاً، عندما انتبه إليها النوري منذ اسابيع ، وتقدمت للتجربة ، وإذا الهدوء يشملها وإذا هي تقلع عن سيرة الماضي ، حتى سجائرها التي كانت تستهلك منها، أكثر من علبة في اليوم ، اصبحت تضعها عند النوري ، ولا تتناول إلا ثلاثاً في اليوم من يده وبعلمه . منذ أسابيع فقط ، تغيرت هذه المخلوقة ، كأنها خلقت خلقاً جديداً . والبواب الشيخ ، والفتاتان المجلببتان في الغرفة المؤدية إلى مكتب النوري ، كلها خلائق جديدة ناطقة بسحر الترياق، وبالمعجزة ... إن المعجزة نفسها تفقد معناها في هذه التجربة . والنوري لا يذكر كل شيء للمبتدىء والراغب ، لأنه لا يملك الحق في ذلك ، لكنه يصف بالإجمال وهو يظن الان، وهو لا يزال في بداية الطريق ، أن أموراً من قبيل المعجزة بدأت تقع له في اليقظة والنوم : حدس صادق وتوقعات لا تخطىء ، وتأثير في الناس يكاد يبلغ السحر، وحب للحياة وثقة في النفس... وليس هو الوحيد في هذه الأحداث ، ولكنه من بين الذين صمدوا لها ولا زالوا يصمدون ، وهو يذكر لقاسم حكايات بعض المبتدئين الذين خدعتهم هذه الوقائع ، فاغتروا وظنوا بأنفسهم ما ليس فيها ، فخذلوا...

وتوقف معتذراً عن إسهابه :

ــ مهما أصف، فلن أبلغ القصد. ولا أريد أن أخوض معك فيما لم تتصوره بعد.

وبدا قاسم مستعجلا :

ــ ومتى أبدأ ، وكيف ؟

ورد النوري :

– لا شيء . تصحبني فقط .

ولكنه ما لبث ان استدرك :

– ... وهناك مبدأ أساسي لا بد منه...

واستمع قاسم بانتباه . لا بد من التصديق ، لا الكذب ولا التكذيب يوصلان إلى شيء في التجربة . إنه عالم آخر يتطلب التسليم . ما يحدثك به عقلك شيء، وهذه التجربة شيء آخر فوق التعليل ، والباقي يتم بعد ذلك .

وبدا قاسم مقطباً ، بعض الشيء متأملا فيما سمع ، فسأله النوري :

– ما عندك ؟

ورد :

– قد تكون مشكلتي في التصديق بالذات ، كيف أنسلخ عن طبيعة متسائلة تفترض الشيء و نقيضه ؟

وبدا كأن النوري يفهم جيدا أزمة قاسم : من ينجيه من تساؤل كبير بأنه عندما يسلم ويصدق ، إنما يمثل دور النعامة التي تخفي رأسها في الرمال، خوف الخطر ؟ وبأية مغالطة او قوة سحرية ينفي عقله ؟ وقال النوري معقباً :

– إنها تركيبات العقل ما تزال تحيط بك ، ولا خطر من ذلك .

وأكد قاسم تردده:

– لكن التصديق يبقى مشكلة .

ورد النوري في ابتسامته تلك :

– اطمئن سيكون ذلك رياضة روحية ، تدركها بالتمرين .

لكن التمرين عادة ثانية ، وفعل العادة معروف . ومتى كانت العادة صادقة ؟

وعلق النوري على خواطر، كالتي تجوب ذهن قاسم :

– لندع هذه التساؤلات ، فقد مر بها غيرك .

وعندما عرض النوري على قاسم أن يصحبه ، مساء اليوم ، أجفل هذا كمحكوم عليه ، تلقى خبراً بساعة التنفيذ .

ورد :

– اليوم ؟ لا أظن .

وتعجب قاسم نفسه من تردده . الم يقصد النوري لمثل هذا ؟ كأن الجواب خرج عفوا وبدون قصد . وقال النوري في ابتسامته المعهودة .

– عندما تشاء إذن .

وعندما نهض قاسم مودعاً ، جذب النوري مجلداً ، نيليا أزرق ناوله إلى قاسم ، قائلا :

– استعن به .

وقرأ قاسم العنوان المذهب ، « كتاب الابريز » ولم ينس النوري ،أن يؤكد أنه كغيره من الكتب يردد مجرد كلام أجوف ، لكنـه يسـاعد المبتديء اللبيب .

عندما أغلق قاسم باب مكتب النوري خلفه ، هاله الهدوء الشامل الذي يحتوي المؤسسة ، كضمائر أصحابها . أما حيرة قاسم واضطرابه ، فكانت النغمة الوحيدة الناشزة في هذا الملكوت . ولم يدر لمَ تضاعفت حيرته الان، بعد زيارة النوري ، وبعد الحديث عن التجربة الموعودة ، والثقة الكاملة بصدق النوري ، والشهود والأوروبية الشقراء و... ولم يدر كيف يعلل رفضه لدعوة النوري هذا المساء ، لمَ التأجيل ؟ وعول على عودة جد قريبة ، قد لا تتعدى الغد... ومر بالشاوش الشيخ، فيجلسته قرب الباب الخارجي ، وخيل إليه أن الرجل غائب لم يلحظه ، وان شهقات عميقةً تصدر عنه . ودفعه الباب إلى ضوضاء الشارع .

— 9 —

لون الغروب سماء المحيط بمسحة من جماله الساحر . الغروب أجمل ما في هذه المدينة . بهذا تحدث قاسم إلى نفسه، وهو يقتلع نفسه، من المشهد . لم يكن يشعر بمثل هذا الفراغ من قبل . ومشهد الغروب على المحيط ، بالرغم من أنه أسره من أول يوم ، فإنه لم يكن ليقطع هذه المسافة بين حيه والمحيط ، ليتأمل مشهد الغروب ، لو كانت المحاضرات والكتب، لا تزال على إغرائها القديم... والإمتحانات تقترب .كان قد استكان إلى عزوفه عن كل شيء منذ انقطعت هنية عن المجيء . وأحس بشيء يرتجف في داخله . وهو يذكر أنه بعد أقل من ساعة سيكون عند النوري ... أما النوري فقد أفهمه من قبل، أن هذا الإحساس معتاد لدى كل من يقبل على هذه التجربة . ودفع قاسم باب المؤسسة الحكومية فانقطع ما بينه وبين ضجة الشارع ، ليلفه الهدوء الشامل ، كأن عتبة الباب فاصل بين عالمين متباينين . مجلس الشاوش خال . والظلال تستطيل في طريقها لاكتساح ساحة المؤسسة، وتشكيل الظلام.لم يبق من أحد هنا . وسار قاسم في الممر، وقد بدا له ضوء يطل من مكتب النوري . طرق فلم يجب أحد ، وانتظر فترة، ثم فتح الباب ودخل ، كان الأمر كما قدر . النوري منهمك في صلاته في الركن الخفي، المنفصل عن المكتب . لم يطل قاسم ليراه ، لكنه سمع شهقات وتنهدات فأدرك ذلك . جلس بهدوء على مقعد . كتب بمختلف اللغات على المكتب ، والرفوف.تناول واحدا وقرأ بالفرنسية « الحياة الروحية بالهند » وبدأ يتصفحه ؛ مستطلع أوربي يتحدث عن رحلته في الهند، اتصل فيها بكبار الروحانيين هناك،

وهو يعرض من خوارقهم ما يدهش... وبعض صور لشباب البيتلز وهم يحيطون بشيخهم الهندي العجيب...

انفتح باب الركن الصغير ، ودخل النوري مبتسماً :

ـ أهلا ، أهلا .

وظل يضغط يد قاسم ، وعيناه عليه ، جلسا جنباً إلى جنب .

ـ كنت منتظرك ، هذا المساء .

ولم يقل قاسم شيئاً، وتساءل النوري مشيرا إلى الكتاب الذي في يد قاسم :

ـ هل أعجبك ؟

ـ كنت أتصفحه .

ـ تجربة جميلة ،أحسن ما فيها ان صاحبها وهو يسرد ما مر به ، يبقى حائراً متردداً، لا يجد تفسيرا لما يرى... إنه خير من موقف اولئك الصحفيين المهرجين الذين يتحمسون لكل شيء ، سواء كانوا معه او ضده .

وأكد قاسم ذلك، وهو يسأل النوري عن رأيه في هذه التجربة. وتوقف النوري قليلا كالمتردد ، كالذي يستوثق من صلابة أرض قبل الخطو فوقها . كان واضحاً أنه يخشى على قاسم، ان يبهره نور العالم الجديد، فيتراجع . لذلك قدر قاسم أنه يكتم عنه الكثير، من اسرار تجربته وهو لم يبدأ بعد الطريق . لكنه مع ذلك، لم يخف رأيه في التجربة الروحية للهنود ؟ انهم يتوفرون على طاقة هائلة من الاحتمال والصبر ، او من الحياة الروحية كما يسميها البعض ، وهم بالفعل يصلون إلى مستوى الخوارق. وأكد النوري وهو يتلفت حوله، كأنه يتلمس مثالا :

ـ الخوارق بالنسبة لما انا فيه، شبيهة بلعب، وحلويات، وأصباغ، يصادفها طفل في طريقه إلى المدرسة، انها تلهي وتغري، لكن الوقوف عندها غفلة ما بعدها غفلة...

ألم يقل قاسم ان هذا الرجل لا يعجزه شيء ؟ لو كذب تجربة الهنود لكان معقولا . لو تقبلها لكان معقولا كذلك . لكن هذا الرجل فوق المعقول ، إنه يزدريها . ويتحدث بلهجة الواصل الواثق . ويتلمس ما يبين به أفكاره بمهارة ودقة . الهنود أيضاً فقدوا الطريق . وتاهوا في الضلال. لسنا أمام هدف نصله من عدة سبل ، بل من سبيل واحد . سبيل واحد لا ثاني له . النوري يؤكد هذا . وقاسم لم يعد شيء يدهشه ، فهو يستمع صامتاً . البيتلز ضائعون تائهون ، إنهم مجرد رمز لشباب القرن العشرين،لكنهم يتشبثون بمن هم أكثر ضياعاً . غريق يتشبث بغريق .

وتناول النوري كتباً مختلفة . كلها تتحدث عن التجربة الروحية ، عن سلام النفس وأمنها . لكنه كلام للبيع . خال من كل دلالة ، كما يؤكد لقاسم. وقال النوري أخيراً :

– إذن ستصحبني الليلة .

– نعم .

وازداد وجهه إشراقاً :

– هذا جميل .

– هل توضأت ؟

– نعم .

– فلنقم إذن .

* * *

سارا تحت أضواء الشارع . ورأى النوري أن متسعاً من الوقت لا يزال أمامهما لموعد زيارة الشيخ . فاقترح ان يسيرا على القدم،فتلك رياضته المحببة واختارا أطول طريق إلى سلا . طريق جانبي يمثل قوساً،يحزم العاصمة من

جانبها الغربي، ليمر بالميناء القديم وينتهي عند القنطرة فوق النهر . وعاما في أضواء القنطرة، والقوارب المنعكسة على سطح الماء، وأحاديث الطمأنينة والسلام وخيبة أمل النوري، في مودة الناس والحب والرؤساء ، وفي كل القيم . لقد قاسى التمزق والغربة قبل أن يهتدي إلى نفسه ، وينكشف له طريق التصديق .

والتوت بهما المنعرجات ، في أزقة سلا القديمة الضيقة ، تفوح منها رائحة الرطوبة والتراب ، وبين الحين والحين ، يؤدي بهما السير إلى ساحة فسيحة تتجمع فيها عربات الخضر ، والأطفال ، والنساء حول سقاية ، وترتفع اصوات البائعين ، لتسلمهما مرة أخرى إلى الضيق .

وارتفعا مع الطريق أخيراً ، عبر ساحة متربة مهملة ، تحيط بها المباني العتيقة التي اتجه النوري نحو إحداها ، وطرق الباب ، ثم تراجع إلى الوراء .

وسمع صوت نسوي :

– من ؟

– الشيخ هنا ؟

وفتحت الخادم الباب ، وأشار النوري إلى قاسم ليتبعه وهو يدلف لا يلوي على شيء . دار أهلية لا يخبر ظاهرها عن باطنها ، كعادة الأبنية في المدن القديمة. وصعدا إلى الطابق الثاني ، واتجه النوري صوب إحدى الغرف . كان واضحاً أنه يعرف كل شيء هنا بدقة . وانحنى على يدي الشيخ يقبلهما ويتشممهما . وسلم قاسم والنوري يقدمه . وجلسا قبالة الشيخ . لم تكن الغرفة فسيحة رغم زخرفها القديم، فاخرة الأثاث، لكنها تشي عن عز ووجاهة، والشيخ قوي البنية، عليه وسامة ، يفيض عافية وإشراقاً ، تجلله لحية قصيرة ناصعة البياض ، ولباس مكتمل أبيض . وتحدث النوري عن قاسم إلى شيخه ، عن حيرته واضطرابه ، ومعرفته القديمة به .

وتساءل النوري في رجاء :

– هلا حدثته يا سيدي ؟

ورد الشيخ في بهجة وتودد :

– اولم تحدثه أنت ؟

والتفت الشيخ إلى قاسم ملمحاً إلى النوري :

– حديثه يفتح النفوس المغلقة .

وارتمى النوري ، على يدي الشيخ يقبلهما ،وهو يردد :

– ببركتك وفضلك يا سيدي .

وبدأ الشيخ يتحدث عن النوري ،ومرتبته السامية في التجربة . لقد فاز بسرعة لم تكتب حتى لشيخه . هذا الطريق لا يعترف بالوجاهات . والعناية الربانية تدرك من تشاء في أي حين . وكم مَن متعب لا تكتب له السعادة . وهذا الشيخ ابتلي بأكبر محنة يمر بها مريد . ولكن الشيخ الأكبر في أقصى شرق البلد ، لم يتعب كثيرا في تحصيل المنة ، وهو أمي فقير ، لكن نوره يبهر ، وكراماته وسحره فوق الوصف ، ولا بد من التصديق . أما هذا الشيخ فكانت بلواه كبيرة . كان سياسياً كبيراً وقت الحماية ، أدرك فيما بعد أن ذلك لم يكن إلا امتحاناً له وتطهيراً ، رموه إذ ذاك بأشنع ما يرمى به شخص : خائن متعاون عميل... وكم ضاق بذلك ، لكن قوة ما ، كانت تشده إلى عمله وتحبب إليه كراهية الناس له ، او تجعله يحتمل . وقال له شيخه الأكبر فيما بعد ، كان ذلك مقدراً لتموت كبرياؤك . لتتعلم التواضع . أما النوري، فيظهر أنه خلق متواضعاً،وذلك ما سهل عليه كل شيء. اما هذا الشيخ،فقد نبذه الأقارب أيضاً، حتى اولاده وعشيرته... واشتدت الاذاية عليه مع الاستقلال ، فاتجه إلى الحج، وهناك ضمه مجلس مع بعض رجال الدين،من عدة أوطان وتذاكروا ، ولأمر ما برم الشيخ بتلك المذاكرة ، وترك المجلس قبل انفضاضه.

كان النوري يتابع حديث الشيخ كأنه يلتهم كلماته ، ولم يكن بادياً عليه أنه يسمع ذلك لأول مرة ، لكنه كان يتمتع متعةبالغة بسماع ذلك ، كل مرة . واستأنف الشيخ :

– تركت المجلس وإذا بشخص غريب، كأنه نبت من الأرض يقف جانبي، مهمل الحال أشبه بالدراويش . سلم علي فرددت عليه بإهمال . وإذا به يكلمني بأعجب الحديث ، يلوك تمرات في يده ويقول :

– عجبت لمن يملك النبع كيف يظمأ !

ويقول :

– عجبت لمن يترك المركب ، ويلقي بنفسه للموج ؟

ويقول ويقول ...

ومددت له يدي بشيء،فقد كان غموضه يغري بذلك ، وإذا به يستاء ويتفرس في وجهي جيداً ، ويقول :

– متى تفهمون ؟ متى تستيقظون ؟ !

واستيقظت مذعورا من الحلم . إلا انه ظل يتكرر .

كان التأثر بادياً على الشيخ ، وهو يروي ذلك ، وقاسم يتابعه بينما يشهق النوري بين الحين والحين بذكرالله . ويعول الشيخ على ان يفهم دلالة رؤياه إذ ذاك : كيف يظمأ من يملك النبع ؟ ! كيف يترك المركب ويلقي بنفسه في الموج ؟ ! ما معنى كل ذلك ؟ واهتدى بنصيحة مسلم من اندونيسيا، أن عليه ان يعود الى بلده ، ويبحث عن النبع والمركب الذي خلفه .

وظل الشيخ يبحث حتى اهتدى الى شيخه الأكبر في قفر شرقي البلد ، ولم يسبق له ان رآه إلا في الحلم ، كان نفس الشخص الذي تراءى له في الحج في حالة درويش . وهكذا انفتح الطريق...

توقف الشيخ عن الحديث وساد الصمت ، كانت القصة مؤثرة بأسلوب الشيخ الواثق المتأني ، لكن صورة أخرى طغت على خيال قاسم : تبدت له من خلف اللحية الكثة البيضاء صورة السياسي الكبير ... او المتعاون الذي كانت تزخر به صحف الحماية . لقد رآه في هذه الصور مراراً ، وأحس الان بشعور غامض،يحمل آثار الماضي ، يلح عليه . هل يزعم لنفسه أنه شعور الكراهية القديم اتجاه رجل تعاون مع الأجنبي ؟ لا يجزم بذلك قطعاً . لكنه من دون شك ، شعور الرهبة . والنوري يؤكد كأنما يقرأ خواطر قاسم :

– الرهبة ؟ الاضطراب ؟ كل ذلك مألوف في البداية . مد يديك للشيخ . لكن اليد لا تمتد ، والرهبة تمعن في التسلط ، وخشية المجهول . ليس بينك وبين السلام الحقيقي ، إلا أن تمد يدك . والشيخ يبتسم والنوري لا يلح . وقد تفوت الفرصة . والخوارق تتداخل والحكايات ... والنوري صادق لا يكذب .

وبدأ بعض الرجال يفدون على الغرفة ، يقبلون يدي الشيخ ثم يتعانقون عناقاً طويلا ، وبعضهم يتشمم بعضاً ، كانوا شباباً من غير استثناء ، النوري أقربهم مجلساً إلى الشيخ . واستغرق كل اثنين او ثلاثة ، في حديث هامس تتخلله ابتسامات وضحكات خفيفة ، وإقبال وإشراق...

وقطع الشيخ الجو قائلا في مرح :

– إذن نبدأ التلفزيون ؟

ابتسموا،جميعاً،ولم يفهم قاسم . لكن النوري يشرح له بأن الكلمة من دعابات الشيخ في حال تجليه ، وأنه يقصد بالتلفزيون رؤى المريدين ، وحنا النوري رأسه في أدب واستحياء وهو يقول ، كأنه يتقدم نحو الشيخ :

– رأيت رؤيا يا سيدي...

وأنصت الكل باهتمام بالغ إلى النوري ، وهو في مجلس لا يعرف مكانه بالضبط ، لكنه كان حقيقة من دون شك ، وأمامه يجلس الشيخ على حائط صغير متهدم ، وما لبث الشيخ أن رمي إلى النوري بقطعة فحم حجري ، ثم وزة...

انتهت الرؤيا ، وابتسم الجميع لبعضهم كالموقنين بدلالاتها السارة . وإن لم يحددوها بالضبط ، أما الشيخ فقد ازداد إشراقه ، وهو يقول :

– هو ذاك ، سأشرح لك .

وتراجع النوري مستبشراً ، وسأل الشيخ شابا فوق العشرين بقليل ، في أقصى القاعة ، تبدو عليه الدعة ، غائب في ذكر لا ينتهي :

– كان لك رأي لم تبح به البارحة ، يا سيدي محمد .

واحمر الشاب كالخجول ، وأطرق إلى الأرض وهو يقول :

– كانت ليلة عجيبة يا سيدي !

والتفت الشيخ إلى النوري :

– ما رأيك في سيدي محمد ؟

ودون أن يرفع بصره إلى الشيخ قال :

– سيدي محمد له أحواله ، وهو يتحدث عما يرى .

وبدا السرور على محيا الشيخ ، وطلب من الشاب أن يعرب عن خواطره ، وازداد الفتى إطراقاً وهو يقول بهدوء :

– أثار انتباهي يا سيدي ما قلتم ، عن برد الرضى وحرارة التدبير . قلتم يا سيدي إنهما مرتبطان ، ولم أتبين ذلك الرباط . واعترتني حيرة شديدة ، كيف يلتقي القطبان المتنافران : برد وحرارة ، رضى وتدبير ؟ وقضيت ليلي ويومي في حيرة . وفي الطريق إلى هذا المجلس ، تبدى لي كل شيء ، لست أدري أذلك مني ، أم من الطريق ؟

وتوقف الشاب قليلا ورفع بصره إلى الشيخ كأنما يستأذن في الإتمام ، او يستطلع أثر ما يقول ، ثم أحنى رأسه وتابع :

– تبدى لي ذلك الرباط ، فحرارة التدبير هي التي تقود إلى برد الرضى . أداء الواجب يتطلب حرارة في الإنجاز ، واكتماله على خير وجه، يحل الرضى والبرد والسلام في النفس .

وما كاد الشاب ينهي كلامه ، حتى انخرط أحدهم في بكاء ونحيب وجسمه يهتز بعنف وهو يشهق بالكلمات :

– الرحيم ، الرحيم . رحمت يا رحيم ارحم . بدا أن الموقف مألوف لدى الحاضرين الذين استغرقوا في أذكار خافتة ، والسبحات تتردد بين ايديهم ، وخرج النوري عن ذكره الخافت ، بعد فترة بدا فيها قاسم غريباً ، ليحدثه عن مرتبة سيدي محمد في التجربة وعن رؤاه ، وما يحظى به من منن ، إنه مدرس ، أما المنتحب الذي لا تتوقف دموعه حتى في حالة صمته ، وهدوئه فهو طالب في الجامعة . والاخر مهندس في السكك الحديدية... وموظف كبير ، وكثير ممن لم يحضروا بعد ، أولن يحضروا هذه الجلسة . ووقف بباب الغرفة شاب ، لم ينبس . وسرعان ما وقف الشيخ ووقف الجميع وخرجوا يتبعونه . في الخارج كانوا يسيرون جماعات من اثنين او ثلاثة متعانقين ، متمايلين والشيخ يملأ الأزقة الضيقة بقامته الفارعة وبرنوسه الأسود فوق اللبسة البيضاء الناصعة ، في حركات ثابتة لا يلوي على شيء . وكان المارة والواقفون يتتبعون حركات التمايل والعناق ، في دهشة لا تخفى...

وسأل النوري قاسماً :

– ما رأيك ؟

أجاب قاسم وهو يتتبع حركات المتعانقين . وقد وقفوا يتسارون تحت مصباح باهت :

– كأنهم سكارى .

وأكد النوري :

– إنهم كذلك بالفعل ، ومن غيرخمرة . إنهم بهذا الصفاء نواة لبيئة بشرية طيبة .

– تقصد مدينة فاضلة ؟

ولم يلاحظ قاسم علامة استنكار لهذا التعبير الفلسفي ، بدت على النوري وهو يرد عليه :

– إذا شئت...

ألف خاطر يتصارع في ذهن قاسم . إن كان هؤلاء في ضلال فيالهوان الإنسان وغفلته ، وإن كانوا على حق فما اضيع الاخرين... الحيرة مرة أخرى ، ولابد من اختيار . والمتعانقون يتمايلون في الزقاق ، والقامة السوداء الفارعة اختفت في المنعطف ، وصوت النوري يردد : تشجع،ودع الشك والتردد ، تسلح بالتصديق . وإعجابه بالنوري كيف يضيع ؟ هل يخيب حدس الرجل ، وحكايات الإبتلاء .

داروا في منعرجات ، وانحدروا بضع درجات ، وانحنوا ليدخلوا دار واطئة،قديمة علت عليها أرض الزقاق، وصعدوا سلما خشبياً، كان يئن تحت أقدامهم المتأنية . واجتمع الكل في الغرفة الضيقة الوحيدة التي تكون الطابق الأول . الشيخ على سرير يبدو أنه لنوم صاحب البيت . والاخرون كثيرون كانوا أكثر من عشرين ، بالإضافة إلى من كانوا في بيت الشيخ . يجتمعون

كل ليلة في ببت الشيخ او واحد منهم . الألفة ضاربة بينهم جميعاً ، وبدا أنهم ينتمون إلى طبقات جد متفاوتة، من اليسر والفقر ، والجهل والتعلم والأعمار .

موظفون كبار ، ومتوسطون مثقفون ، وأميون ، أطفال ورجال وقال الشيخ لقاسم في ابتسامته المعهودة : إن النساء أيضاً يدخلن في جماعتنا ، ، والأجانب أيضاً ، وإن هناك حركة في أوروبا لنشر مبادئهم ، لاقت كل الإقبال... ضاقت الغرفة بالجماعة ، لكن الإستبشار كان يعمهم ، كل واحد يعانق الاخر ويتشممه. ويتبادلون السبحات ، ويتمتمون بالأذكار ثم ارتفع صوت أحدهم بالذكر ... بعضهم أغمض عينيه في نشوة . يتمصص الألفاظ متلذذاً بها ، وآخر لا ينقطع عنه سيل الدموع ... وشهقات وأطفال يهتز ون ، وعنف واضطراب ونشوة بادية ، وواحد يقفز بينهم فجأة ، ويقف متصلباً ، والزبد يتكاثف حول فيه ، ويتشنج ويتلوى ليسقط على ركبتيه في عنف ويطرق إلى الأرض ليرفع يديه . ووجهه إلى السقف صائحاً : الرحيم ، الله ، الرحيم...

كان جوا عجيباً يصعب تخيله ، وفي فترة استراحة بين الأذكار ، همس النوري في أذن قاسم ، ليتأمل أحدهم في الطرف المقابل ، شابا شديد السمرة في الثلاثين قوي البنية ، قابعاً في هدوء واستكانة ، كأنما ثقل ران على كتفه ، يرفع رأسه حيناً بعد حين ، إلى السقف في شهقة يهتز لها بدنه ، ليعود إلى إطراقه وذكره الهامس وسبحته .

ونزلت مائدة طعام متواضعة ، صحن من المقرونة بالماء والملح لا غير ، لم يجد فيه قاسم لذة على قلة ما يعانى ، وحصى الملح لم يذب بعد ، يصل بين الأسنان ، ومع ذلك كانوا يتهافتون بمعالقهم على كثرتهم ، ويوسعون لبعضهم ، كان واضحاً أن الجوع ليس دافعاً إلى ذلك ، لكنه حب الاشتراك مع الجماعة في الطعام . تسقط الحبة من ملعقة أحدهم ، فيتسابق رفاقه لالتقاطها من حجره ، من الأرض ، متلذذين ، ويتبادلون الملاعق في انتشاء .

وانسابت حكاية الشاب الأسمر في أذن قاسم . انه بلوى من نوع آخر كما قال النوري . كان الشاب منخرطاً في جماعة فدائية ، وكان من حظه أن يقتل الشيخ ...

ـ شيخنا ؟ !

هتف بها دون وعي وفي استغراب ، وأكد النوري :

ـ نعم شيخنا هذا بلحمه وعظمه !

إحدى حكايات الماضي أثناء محنة التطهير ،التي اجتازها الشيخ قبل ان تناله بركة الرحيم ومنته ، يرويها النوري مرة أخرى بأسلوبه الودود وتصديقه الذي لا يعرف حدا . لكن الرصاص رفض ان يخرج ، او ان الزناد امتنع عن الاستجابة لضغطة الحقد،من يد الشاب الأسمر ، ونجا الشيخ أكثر من مرة لتتم النعمة عليه . وبعد أكثر من عشر سنوات. تتبدل الأشياء والناس ، ولا يجد الشاب الأسمر منفذاً له من الحيرة والضيق ، إلا غريمه القديم ، بعدما عجز عن ذلك منصبه العالي ،الذي خول له ماضيه المشرق ، وكما عجز عنها الأصدقاء والزوج والأولاد ، بل ان صدمة الشاب ما جاءت الا من هؤلاء جميعاً ، لتجد لها ترياقاً في طريقة الشيخ .

حكايات وحكايات ... خلف كل وجه صدمة ومحنة وحيرة... وفي كل مقطع من ألفاظ الذكر ، نداءات الألم العميق تتبدد حبا وعناقاً ، ورؤى سعيدة إلى آخر الليل ، إلى بداية الصباح .

والأطفال ؟ أية صدمات وراءهم ؟ أية استغاثات في سن العاشرة والثانية عشرة ؟ كان قاسم يفكر في كل هذا وهم سائرون بعد انفضاض الجمع بعد آخر الليل . كل شيء هادىء في المدينة الصغيرة . والجماعة تبعثرت مثنى وثلاث في سكر وعناق . والنوري يجيب على تساؤل قاسم ، وهم يتجهون صوب محطة

التاكسي للرجوع إلى العاصمة :

– ما بال الأطفال ؟

ورد قاسم :

– لا أتصور صدماتهم ، ولا أتصور كيف يعودون إلى الدرس نهاراً بعد قضاء سهرات مستمرة، كهذه...

ورد النوري بدون تردد :

– تربية الروح أهم ، إنهم يسعدون في صباهم بما لم نسعد به نحن ، ولا حتى الشيخ . ولحسن حظهم هذا...

وبدا لقاسم ، كأن غنة تردد خالطت صوت النوري ، وهو ينهي كلامه . وأردف قاسم :

– هل توجه أولادك لمثل هذا ؟ !

يا للصاعقة ! كل حيرته في هذا السؤال . نفثها مرة واحدة . وأحس راحة. بعد هذا السؤال، سيفهم قاسم وربما إلى الأبد، او لا يفهم،وإلى الأبد أيضاً. يا رحيم . قاسم يعرف النوري كرجل تربية مطلع... وإنه لا يدخر حيلة في تربية أطفاله،على أحسن وجه وأنه لذلك أدخلهم منذ الصغر مدارس أجنبية ، وساد الصمت فترة ثم أجاب النوري :

– التصديق يا قاسم ، لا بد من التصديق .

لكن أجيج النار لا تطفئه العواصف ، بل تذكيه . والصاعقة لا بد أن تصيب شيئاً . وحيرتك يا قاسم ، بعضها على الأقل ، لا بد أن يلقى جواباً شافياً واضحاً .

وكرر قاسم :

-- إنما أسألك عن أولادك ، هل تريدهم لمثل هذا ؟

كان الظلام خافتاً مؤلماً، يتجاوب في أعماق النوري ، كأن كائناً في داخله يتحرك بعد رقود طويل ، أصوات استغاثة وصخب غضب وثورة تغلي .

... وخيل إليه أن النوري يسرع الخطو اتجاه التاكسي الرابض، على الطوار الاخر ، يلمع معدنه في الظلام . لكنه هو ما يزال راغباً في جواب ، يريد أن يفهم أو أن لا يفهم وإلى الأبد. وكرر السؤال لنفسه وللنوري الذي لم يجب بعد :

ـ أتريد هذا لأولادك ؟

ومن داخله أجاب صوت النوري الذي لم يجب بعد :

ـ التصديق... التصديق يا أخي .

ودلفا إلى التاكسي دون أن ينبسا بعد ذلك ، بكلمة .

— 10 —

أيصدق عينيه ؟ لمَ لا ؟ هي بدون شك . كانت تبتسم . ابتسامتها الهادئة المعهودة ، لكنها باهتة أو أكثر حزناً . كيف يخفى عليه ذلك ؟

وتجاوز إليها زحام الطلاب ، في الساحة ومد يده :

ــ أنت ، ما هذه الغيبة ؟

ونظرت إلى الأرض ، قائلة :

ــ هكذا .

زادها الحزن ظلالا أضفت على محياها مزيداً من الجمال. ما أشد قابليتها للحزن، بل ما أكثر ما تحتمل . وتوقف عن خواطره، عندما رفعت طرفها إليه وقد بدت في أعماق عينيها، دمعة لم يفرج عنها . نظرت هنية يميناً وشمالا وهي تقول ، في ابتسامة مفتعلة تخامرها تنهيدة :

ــ كل شيء بخير ، الطلبة والدراسة... مما يسعد المرء ان أموراً ما، تسير في طريقها المرسوم .

وعاد يسأل كأنه لم يسمع ما قالت :

ــ سألتك فيمَ الغيبة ؟

ــ طرأت أشياء .

وتعجب :

ـ أشياء ؟ والدراسة ؟

نظرت إليه في عتاب :

ـ الدراسة ؟

وتذكر أشياء كثيرة ، لم تغب عنه قط ، فاستدرك :

ـ أقصد فقط ، أن للدراسة بالرغم من كل شيء هي...

وبدا عليه التلعثم ، كمن لا يجد الكلمة فنظرت إليه متسائلة :

ـ هي ... ماذا ؟

ـ لنقل إنها مصرف جيد الإهتمام .

ـ لنقل ؟ !

ـ لم أحسن التعبير .

ـ بل تهربتَ من اللفظة المناسبة .

ـ ربما .

وتوقفا لحظة عن الحديث . خواطرهما كانت تتلاقى في نقطة ما، وقالت:

ـ الدراسة عزائي الوحيد . هذا ما كنت تريد ان تقول .

ولم يزد على أن قال :

ـ ربما .

وتحركت بخطوات وئيدة، إلى أقصى الساحة . قالت وهي تنظر إلى الأرض :

ـ أرفض فكرة العزاء . إني أعي موقفي بكافة أبعاده .

وبدا عليها التأثر، رغم الهدوء الظاهري، وبدت رجلاها تضغطان الكعب

العالي، بشدة على الأرض الصلدة . وتحرك قاسم، فتبعته حتى تجاوزا الباب الحديدي . وأصبحا تحت السقيفة الخارجية ، لمبنى الكلية وقال :

– بعد أسبوع . تصبح غيبتك ، قد طالت ثلاثة أشهر .

لم تجب ، فعاد يسأل :

– ألا تنوين متابعة الدراسة ؟

أجابت :

– أعتقد أن رسالتك هي التي جاءت بي اليوم .

لم يزد على أن تأوه . لم يكن مقتنعاً . رسالته ذهبت إليها منذ شهر . فكيف تأتي بها اليوم ؟ وأكدت له كأنها تقرأ خواطره :

– وصلتني الرسالة منذ أربعة أسابيع ...

وقاطعها في لهجة لا تخفى تهكماً :

– وأتت بك اليوم ؟

وأكدت :

– أظن ذلك . لأني كنت ولا أزال ، قد قررت الانقطاع عن الدراسة .

– كنت ولا تزالين ؟

أكدت ذلك، وطرفها يسرح في الأفق الفسيح، وبعد لحظات تساءل :

– لمَ جئت إذن ؟

وتلعثمت ثم رفعت وجهها إليه أخيراً :

– ربما... لأودع... وأشكرك فقد ساعدتني كثيراً ، ولم أجد عنوانك على رسالتك .

إذن لم تكن الرسالة حدثا عابراً بالنسبة إليها ، كما لم تكن علاقتهما عابرة بالنسبة إليه . ولا أحد يدري ما تخفي السرائر ، ورد كمن يؤنب نفسه:

– حقاً لم أكتب عنواني ، ربما ... لأني خشيت أن تقع في يد أحد .

وردت في لهجة متشككة :

– أحقاً ؟

وأكد في احتداد كمن يدافع عن نفسه :

– نعم ، زوجك مثلا .

– زوجي لايتدخل في شؤوني ، ولا يدخل مكتبي في المدرسة ، وأنت تعرف ذلك.

ورد في احتجاج :

– لا أدري ، ما الذي منعني من كتابة عنواني...

لكنها امعنت في لهجتها ، كأنما تود متابعة اللعبة إلى النهاية ، لعبة الحرج ، والإحراج . وما وراء ذلك ؟ اتستنكر أن يكتب إليها ؟ ربما كانت محقة في ذلك ، لكن بدون هذا الاصرار والإلحاح ، ام شيء آخر ، ترمي إليه ؟ وقالت

– على أني لم أر في الرسالة ما يدعو إلى خشيتك .

وتململ كمن لا يجد راحة . لمَ هذا التسآل ؟ وقال :

– ليس فيها شيء . إنما...

وتوقف كمن يبحث عن كلمة :

– إنما ماذا ؟

ورد :

– ... ربما كنت فقط ، أود تذكيرك بأهمية الدراسة ، او أي شيء من هذا

القبيل ، وربما فكرت بأنك قد تكونين مريضة أو..

وتوقف قليلا ثم أردف في رمية اليائس :

– اعتذر عن إزعاجك .

عادت إليها سيماء الهدوء .

– لا تسيء فهمي . فأنا شاكرة على كل حال ، ولهذا جئت .

وسأل :

– لماذا إذن تنقطعين عن الدراسة ؟

أجابت :

– أسباب كثيرة .

– مثلا ؟

أجابت في صيغة لا مبالاة :

– بالإجمال . مشروع تجاري لزوجي ، لجماعة شركاء يقتضي انتقالنا إلى الجنوب .

وكأنما لسعه عقرب :

– الجنوب ؟ ولماذا بالذات ؟

تنهدت وهي ترد :

– نعم الجنوب بالذات ، وسأتخلى عن وظيفتي ، لدي ما يشغلني هناك .

وقطب ولعله تمتم بغير مفهوم ، ثم قال :

– الا ترين ان ننأى لنتحدث قليلا ؟

أجابت في يأس :

ـ ما الفائدة ؟ وماذا تقول ؟

ـ لدي ما أقول .

وردت :

ـ أشك في ذلك .

وألح :

ـ أرجوك .

نظرت إليه قليلا ، كأنما تتأكد من أنه بالفعل يملك ما يقول ، وما جدوى ما يملك وما سيقول ؟ نداء الجنوب قوي في أعماقها وأشياء أخرى تتنازعها ، وماذا عساه يقول ؟ وتقدما إلى السيارة . لم يتكلما . كانت تقود في طريقها المألوف ، وهو إلى جانبها يضغط محفظة صغيرة في حجره، وتوقفت عند الحافة الصخرية الصغيرة، حيث تتكسر أمواج المحيط تحت أقدامها . وبدا المنظر موحشاً. وراءهما المقبرة الصغيرة القديمة يخترقها طريق ضيق ، والأحراش الرطبة المتراصة على جانبيها ، وهدير الموج وأصوات كالنعيب .

وقطع لحظة الصمت :

ـ هل قدرت قيمة ما تفعلين ؟ في ظروفك ؟

أجابت وهي تتحاشى نظرته :

ـ أظنني قدرت .

ـ أنت مخطئة ، ستندمين ، بل تنتحرين .

ونظرت إليه في استغراب .

ستبعث والدها من معزله ، ستبعثه من جديد ، ويجتمع شمل الأسرة . ومشروع زوجها فرصة مناسبة لذلك ، لطالما رفضت مشاريعه قبل ذلك .

لكنها هذه المرة تملك أكثر من دافع قوي . كانت مشاريع زوجها تجارية خالصة من قبل ، أما هذه المرة فهناك جانب إحساني مغري... سيتولى أبوها هذا الجانب ، وبذلك يتسلل إلى الحياة من جديد،أو تتسلل إليه الحياة ، وتساعده هي ، أما المقدري فسيمارس تجارته بهمة جديدة ، يذكيها جمع الأثرياء الشركاء ، من كل مدينة وحملة الصحافة... ويذوب كل فرد في اتجاه... وتذوب بعض مشاكلها...

وتوقفت عن الحديث،وتسارعت في ذهنه الأشياء والناس ، وتساءل مستغرباً :

– كيف ترمين بنفسك في هذا الخليط ؟

واستنكرت :

– خليط ؟ والدي ، أسرتي ، زوجي والإحسان ، كيف تسمي هذا خليطاً ؟

بل هو أكثر من خليط بالنسبة لقاسم على الأقل ، ويجب ان يكون كذلك بالنسبة إليها أيضاً . أي إحسان وأي مشروع ؟ الرؤوس المدبرة لكل ذلك يعرفها : غنام والمنصوري ويمكنه أن يعرف غيرهما : المحامي والتاجر... والمقدري والتهامي يعرفهم أيضاً ولو من خلالها . ليتها تكون صريحة مع نفسها ، وتنظر إلى الأمور كما هي . من أبوها ؟ عميل قديم يبحث لنفسه عن عباءة ، عن غطاء ، عن وقاء ينسجه كثير منهم ، كل لغرضه الخاص . وهي ما غرضها من كل هذا ؟ لماذا تمثل الضحية في كل عصر ؟ وزوجها من أي معدن هو ؟ تزوجته إنقاذاً لوالدها وأسرتها ، بل إنقاذاً لثروتهم بعد أن فقدوا كل اعتبارات المجتمع . لم يهبها الحب ولا حتى الطفل الذي يملأ فراغها ، ومع ذلك تظل مرتبطة به في إصرار ، من أجل ماذا ؟لا شيء، الا حفظ ثروة أسرتها ، وإلا اعتبارات أخرى متهافتة فيا للضياع .

وبدا أن صراحته تؤذيها . كان متأكداً من ذلك من طريقة إنصاتها ، من صمتها ، وكان حريصاً على أن يقول لها كل ذلك، وقد احتد وأمسك بذراعيها.

– أجيبي بصراحة . لا تجيبيني ، بل أجيبي نفسك ، في اعماقك . هل يستحق هؤلاء ان نضحي من أجلهم ؟ هل يقدرون قيمة ذلك ؟ لمَ لا يضحون من أجلك ، ويقول الوالد ولو مرة في الزمن : مالي وللثروة ، إن ضاعت سعادة ابنتي أو يقول الزوج قبل أن يقترن بك : ما لي ولبريئة لن أسعدها ؛ ما لي ولثروة لا يد لي فيها ، ما لي وو...! لمَ لمْ يقولوا أي شيء من ذلك لفائدتك وفائدة غيرك ؟ لماذا نكون كبش الفداء ونتحمل أوزارهم ؟ عبثاً نحاول بعث الحياة في الرميم ، عبثاً نحترق لنغذي الهياكل النخرة . ووالدك ماذا يمكن أن يكون بعد الذي كان ؟ يد الحطاب لا تنبت . وما فائدة الإحسان بعد أن تجمع المال من ألف سبيل ؟ ! وبعد أن يصبح الإحسان تجارة ، والسلام وسيلة حرب ؟ إلى متى نرتق الماضي ولا نتبين معالم المستقبل ؟ إلى متى ؟

وتوقف مرة أخرى ، كانت ساهمة في الأفق ما تزال . تناول يدها في حنو طبيعي، ورجاها أن تصدق نفسها . جمعتهما الظروف أكثرمن مرة : في الوظيف وفي الجامعة ، في الصداقة والتفاهم، وربما في المشاكل أيضاً . إنه يحمل بدوره أثقالا من ماض نسج الغير خيوطه . لنقل إن الصدفة لاقتهما في كل ذلك، أفلا يلتقيان بإرادتهما مرة واحدة، وإلى الأبد ؟ بالعزم والتصميم. ويخططان مسيرتهما عن وعي وإصرار ، يداً في يد . ويبدآن عصراً جديداً يحمل كل فيه وزره ، ويرسمان على الدهر بسمة العدالة . المذنب بقدر والمسيء بقدر. وينطوي عهد المصلوب ، وتنبت الأجيال القوية الصريحة . لمَ التجاهل والتغافل ؟ إنهما يتفاهمان، وليسا بعد طفلين. تجاربهما تكمل بعضها . وذلك ما أحس به أول يوم ، وربما أحست به أيضاً ، وذلك ما يعلنه إليها اليوم في قوة ، ولا تزال تضمره . منذ انفتح له عالمها أحس بأن شيئاً ما ، يجب أن يقوم ، شيئاً ما يجب أن يستأصل ، ليقوم على انقاضه بناء متين :

ـ أحبك يا هنية ولا مفر من هذا الإعتراف ، وأنت تحملين نفس الشعور ، فلمَ التخفي ؟ ولمَ التهرب ؟ ألم تعارضي مشاريع زوجك من قبل ؟ أو ليس قبولك الان مجرد هروب ، من حب حقيقي عنيف يدهمك ؟ بل إني لأتخيل زوجك وقد تهيب أن يقرر شيئاً ، في موضوع المشروع الجديد ، فإذا بك تشجعينه وتزينين له لمجرد أن تهربي ، ولمجرد أن تجدي شيئاً جديداً يشغلك ، بعد أن لم تعد تجدي الوظيفة او الدراسة . وأخيراً في سبيل من ؟ لحساب من تحترق الشمعة في وسط معتم ؟ كل ما أرجو ، أن تكوني صريحة وحازمة ، في أخذ حقك . العدالة لا تقبل ظلماً ولا انظلاماً .

انتهى كلامه إلى أن يكون همساً ، لكنه همس قوي يهز كيانها هزاً . دعوة عنيفة صريحة بلا مواربة ولا تخفى ، لقطع سلسلة ثقيلة تنوء بحملها ، ولم تتجرأ من قبل على التفكير بالتخلص منها .

كانت وما تزال ساهمة . يدها مستكينة في يده، ونظرها إلى الأفق البعيد ، والرأس مرخاة على مقعد القيادة ، ودموع صامتة بدأت تنساب في هدوء . وانتحابها مكبوت في الأعماق، تنم عنه ارتعاشة الشفتين . ليرحمْ ضعفها الان، وليتركْ لها فرصة التفكير .

أدار أكرَةَ الباب في هدوء ، وانساب من مقعده ، وفتح رئتيه لهواء البحر. مهما يكنْ فقد أفرغ حمولة ناءَ بها دهراً، وجاء دورها . ليقر بأنها تتألم أضعاف ما يتألم ، وأنها تحملت قبله بكثير ، ضروباً أشد، من الألم... لكنه لا ينسى أرقه وعذابه وحيرته . الان بالقرب منها يجد كل طمأنينة وسلام ، يجد الترياق العجيب الذي عز عن كل حيلة ، وحسناً فعل بمصارحتها ، ولو انتظر الدهرَ لما اعترفت له بحبها ، ولما أبصرتْ ما حولها بالمنظار الذي رسمه لها به ، منظار الأشياء والناس كما هم . لو لمْ يصارحها لكانت قد ارتمت في أحضان الجنوب ، والمشروع ، والإحسان ، والتجارة... المصلوب لا يطلب

أجراً . ولعلهـا لم تحضر لتودعه ، او تشكره . حسب قولها بل لتعرف ما يحمل بين جوانبه . كبرياء المرأة تدفعها إلى التريث و التدبر . والخطوة التي يتطلبها الموقف منها . قوية جبارة . وعليها أن تستوثق من الأرضية التي يمدها تحت قدميها... ليتها تخطو معه نحو المستقبل بقوة ... ليتها تكف عن هذا العذاب... ليت...

واستدار على صوتْ المحرك يدار بسرعة ،والسيارة تنفلت وتلوي اتجاهها ، مثيرة حولها سحابة غبار ، قبل أن تصل الاسفلت ، لتصعد في الممر الضيق بين جزئي المقبرة . مخلفة في أذن قاسم الجامد في موقفه ، أزيزاً حاداً يمتزج بالدهشة والعجب وعويل البحر . وبدت المحفظة الصغيرة مرمية ، حيث كانت السيارة واقفة ؛ أخذها بتثاقل ، كانت مفتوحة ، تطل منها ورقة مطوية بيضاء .

* * *

« ما جدوى أن أسميك عزيزي أو حبيبي ؟ ما جدوى الألفاظ وأنا أشعر بأني أخلق من جديد ، أكشف عالماً جديداً ، حلمت به كثيراً في يقظتي ومنامي ، قرأت عنه ولم أترقب وجوده ، لأني كنت يائسة من أن يوجد ، أو أنه إن وجد ، فليس لي فيه نصيب ... عالم ألوان وفراشات وعصافير ، عالم الصمت والحب والنغم... لكنه ليس عالمي .

تقبلْ هذا مني . إنه ليس عالمي . عالمي أعرفه ، بصقيعه ولا مبالاته ، بآلامه الصامتة ، بجراحه وأثقاله وأوزاره . عالمي أعرفه ، ولا أعرفني خارجا عنه . تلومني أن ربطت مصيري بمصير الهياكل النخرة ، برفات ورميم ، ذلك لأني رفات ورميم ، وهيكل نخر . والشعلة التي تتقد في أعماقك ، انطفأت عني منذ زمن ، وإلى الأبد . تلومني ... ولكني أيضاً ألومك ، لما تحاوله معي ، لا لجدار الزمن ، لا لأني أكبرك بسنوات معدودات ، بل لأني في أعماقي

أنتسب إلى جيل مضى ، إلى زمن انقرض ، أو يجب أن ينقرض . لا تحاول مرة أخرى . فلن تزيد الجروح إلا نكأ . ولتدمْ شعلتك لهيباً يذكي أجيال المستقبل . وحسبي أنا ، أني بعد الضلال عثرت على حبي . على نفسي . وأني عدت إلى الضلال . كفاني أن برهة ما ، من الدهر عزفت لحن وجودي ، وتلك أعز ذكرى منك » .

* * *

بل هو الذي عاد إلى الضلال . طريقه القديم لا يجمع قطبين متكاملين . ولا طريق النوري . لم يكن له أي طريق . ويفتر النوري عن ابتسامته المألوفة . ها قد عدت سريعاً . نعم عدت . هات ما عندك وهاك ما عندي . اذكرْ ربك الرحيم ، أرأيت هذه الأوروبية الشقراء ؟ ماذا فهمتَ من حديث سيدي محمد؟... عن الهنود ؟ أولئك أخطأوا الطريق كغيرهم ، لم يفهموا السر الأكبر . الطمأنينة والسلام والإحسان والناس والبر والتضحية وكبش الفداء . والمنصوري من رجالنا ، وإنما أقعده عجز الشيخوخة عن حلقات الذكر ، ومرض الثروة . من ألسنة اللهيب تخضر أوراق الجنة . تجارة الإحسان وإحسان التجارة . برد الرضى وحرارة التدبير . النار في الطوفان . غيرك كان أقسى تجربة ، وهو اليوم في بحبوحة النعيم . ماذا رأيت في منامك ؟ خيراً وسلاماً . والدتكَ تعلق من أجفانها في الجحيم ، ووالدك مع الصديقين ، أو العكس . الكل صحيح عندما يفنى الكل في الكل . وما عند ربي إلا النعيم . أخوك لا مكان له في أي مكان ، حتى في الجحيم ، بطاقة تعريف بدون توقيع . لا تؤكد على الماضي ، على الأوزار القديمة ، ربي خارج الزمان . لا خوف على صاحبتك هنية ، ستعود إليك . تعود إلي ؟ أو تعود إليها حتى تذوبان معاً ، او لا تلتقيان أبداً . هل تهزأ بي ؟ معاذ ربي الرحيم وعندما يفنى الكل في الكل لا يبقى إلا

النعيم . هذا تفسير رؤياك .ألم تعرف الجالس على الأريكة والحوريات من حوله والقطوف ؟ إنه المقدري زوجها ، والباقون جماعة المحسنين ورجال التضحية والحب والسلام والأمن والطمأنينة وكبش الفداءوالناس . ماذايلعقون ؟ ألم ترها إذن ؟ انظر فوق ، إنها المصلوبة . المسامير كما ترى هي علة الدم المتقاطر منها ، لا الصلب ذاته ، يلعقون دمها لأنهم يحبونها وهي تجود عليهم به لأنها تحبهم .

لا بد من التصديق . رحمتَ يا رحيم ارحم .

— 11 —

فقد قدرته على الحساب في الضجة ، والزحام،والبخار المتصاعد . ولا يدري أي كأس يشرب . ركز مراراً في المرآة أمامه،ومرفقاه على متكإ البار.ترفض المرآة أن تعكس صورته . وكشر حتى بدت أسنانه . يقولون تصنع المرح ، تجد نفسك سعيداً . يحاول أن يبتسم في أعماقه فلا يحس إلا صدى كآبة يتردد . والكأس من شأنها أن تفرج الكرب . وكلما أمعن في الشرب،لم يحس بأكثر من امتلاء خبيث ،كأنما السائل يتراكم بعضه فوق بعض في جوف مبلط.طبق الصول بارد أمامه يشكو الهجر.أية كأس يشرب ؟ الكأس الكثير،ولا داعي للعد والترتيب . جيبه ما زال يحتمل المزيد،الا يسقط مغشياً عليه ويحمله اثنان يجاهدان بدورهما قصد الصحو،فلا يظفران إلا بتمايل يشي بسكر كسكره ؟ لماذا جاء إلى هذا المكان ؟ هارباً من واقعه ؟ لا يزال إذن رأسه يسأل ويجيب . وكيف جاء ؟ إنها العادة . الفأس وحدها كفيلة بأن تقطع هذا التيار . أحقاً يحزنون عليه لو وقع ذلك ؟ يحزنون عليه ؟ من هم ؟ هي وذاك وتلك وهو... وما الفائدة ؟ أيدل ذلك على أنهم حينئذ ندموا على التفريط في اسعاده،عندما كان حياً بينهم ؟ ما الفائدة من ذلك عند ذاك؟ ام أنهم فقط يجدون فرصة، لينفسوا عن أحزانهم الخاصة ؟ ربما بكوا بفعل العادة فحسب،ويستمر كل شيء كما كان ويكون : الضجة العارمة هنا ، ورائحة السمك والشواء والإحسان والتجارة هناك ، والطيبون في كل واد والسلام المصلوب ، وألف خطيئة ، وكل مهزلة . أحسن ما يفعله امرؤ أن يقف ليلة نعيه بالباب عند انصراف الجمع ،

ليتابع أحاديثهم وسلوكهم بقية الليلة . لكن العادة لا تسمح بذلك ، جرت بأن يكون الميت غائباً فلا يشهد أكبر مهزلة . لو انفتحت ضمائر الناس للناس لكان كل شيء سهلا وواضحا ؛ الشقاء الدائم أو النعيم . يجب أن تمسك على الحرباء في الفراغ، لتظفر بلون واضح ثابت . ليت صداع الرأس يخف، وتذهب الضجة ...

وتجرع كأسه طالباً المزيد . وعول على أن يحصر انتباهه فيما حوله ، ما دامت رأسه لا تكف وخواطره لا تتوقف . سخافات هذه الوجوه، أخف وطأة . المرآة المواجهة ترفض دائماً أن تعكس صورته، وخلفه شخص سكران يمارس زرع النقود في جوف الفليبر ، لكنها تتساقط وتحدث رنيناً على الأرض فلا يحفل بجمعها، ويظل يمارس زرعها بيد لا تثبت على شيء...والباقي أشخاص يشربون، وكلهم متشابهون بلا وجوه ولا ملامح ، يغلفهم الدخان والبخار. كل من يدخل هذه البقعة توأم للآخر ... ماذا بقي إذن ؟ من أين ترتفع الضجة ؟ كل شخص يتحدث بهمس إلى نفسه أو جاره ، فكيف تتجمع الأصوات وترتفع ضجة ؟ لمَ لا يكون مجموعها صوتاً واحداً أشد خفوتاً ، وكيف يكون مجموع السالب موجباً، وبأي قانون ؟ آه، يعود الرأس من جديد إلى السؤال والجواب .

الإسبانية تلبي الطلبات . لم تبد يوماً بهذا القبح والدمامة ، والمرآة اليمنى أكثر ودا، تعكس الصور بأقل جهد من المرء . في الركن المظلم شبح منطو على نفسه ، عائم في الدخان ، جامد لعله ميت لولا أنه يتحرك ، بدأ يتحرك فعلا :

— أنت حزين ياأخي ، هذا المساء .

لم يجب قاسم، والشخص يخرج من غمامة الدخان ويدني مقعده الطويل حذو مقعد قاسم، وكأسه، بدا أنه كان يرقبه منذ مدة، ولم يكن غير شخص ليلة ما ، من عمر قاسم في هذا المكان بالذات ، الوعدودي .

ومد يده نحو قاسم :

ـ أخوك الوعدودي . الا تذكر ؟

وهز قاسم رأسه علامة التذكر والموافقة . وأردف الوعدودي :

ـ ليس في الدنيا ما يستحق الحزن . جئت أشرب . كنت تشرب ، فلنشرب .

وكأنما أفاق قاسم فعلا ، وتذكر عدة أشياء ، فتحرك كالمنصرف :

ـ تنصرف ؟ هل أضايقك ؟ إذن اشرب معي .

وصبت لهما الشقراء ، حسب رغبة الوعدودي وهو يترنم :

غد بظهر الغيب واليوم لي...

وكأنما انتبه الوعدودي إلى شرود صاحبه فتساءل :

ـ لا شيء يستحق الاهتمام ، فيم تفكر ؟

لم يجب قاسم ، فاستأنف الرجل تساؤله :

ـ امرأة ؟

وهمهم قاسم ، واستأنف الوعدودي في ثورة، يود بأي ثمن أن يفهمه هذا الشاب المبتدىء في أمور الحياة. لا شيء يستحق الإهتمام . الماضي ؟ وماذا نعمل لنعيد الماضي او نصلحه ؟ المستقبل ؟ سيصبح ماضياً ولا تبقى له أهمية . الغير ؟ وهذه أكبر سخافة ، أنا واللحظة والكأس . أنا اللحظة ولا شيء آخر . كل شر وراءه امرأة . وأكد الوعدودي :

ـ لا تترك للمرأة مكاناً في نفسك .

ورد قاسم ساهماً ، كأنما يحدث نفسه :

ـ لكنها تتعذب .

ـ لا تتعذب امرأة .

– وضحك ضحكة مجرب فتساءل قاسم :

– لك أخت ؟

– لا . كانت لي امرأة .

– افرض انها تتعذب .

– لا تتعذب امرأة على الإطلاق .

– افرض...

– لكنها لم تتعذب...

– ضحت بشبابها وحبها من أجل عناكب الأسرة، بكل شيء من أجل لا شي.

– ضحكت علي ... فارقت بنتي ، هدمت أسرتي في سبيل حبها .

– زفت إلى العذاب والحرمان؛وبوداعة مريرة تسلم عنقها للغير،حفاظاً على أي زواج ؟

– زواج ؟ هه اعتقدت أنه الحب ، يا للغفلة ... أنه الرباط الأبدي بيننا ، لكنها كانت تطمح إلى ما ليس في ، إلى السهرات والأنوار والجاه...وكسرت كل شيء.

– آلامها في صمت وبلا أمل ، والعناكب ما تزال تمتص من دمائها.

– تسبح الان في الأنوار والأضواء ، تتلقفها الأذرع... وبنتاي... والكأس .

والتقت أعينهما خلال الغمام . لم يكن أحدهما يسمع الاخر،لكنهما كانا يتفاهمان بدون شك . كل في واد ، يجمعهما وادي الكأس . وقهقه الوعدودي بحركة قطعت الهمس الصارخ فترة ، وفتحت أعيناً خابية متطلعة ... لتعود الضجة الهامسة :

– عدنا للمرأة .

وهمهم قاسم موافقاً . وضرب الوعدودي على البار كأنه براهن على صدق رأيه :

ـ المرأة ، والسلام ، والعالم ، ثالوث لا يلتقي...

ـ وهل يلتقي ثالوث الرجل والعالم والسلام ؟ !

وكأنما تذكر قاسم شيئاً ، فهمهم لصاحبه :

ـ هناك محاضرة عن السلام .

لم يجب الوعدودي ، كان يتجرع الكأس . واستأنف قاسم :

ـ محاضرة لرجل كبير كبير .

وتساءل الوعدودي متصنعاً الجد :

ـ هل استدعوا إليها السيد سلام ؟

ـ لا . تعذر حضوره . بعثوه في مهمة يخطط لحرب هامة،يجب ان تتسع رقعتها بفضله .

وصفق الوعدودي بقوة كما لو كان يحيي المحاضر نفسه في قاعة عمومية .

وأقبل على قاسم يقبله... وأمعنا في الشراب ...

أحس قاسم بارتياح كمالولقي شطراً من ذاته . والأشطار الأخرى، أين يلاقيها ؟

وبدا الوعدودي شارداً في الغمام،وقال بتؤدة كأنه يتهجى الحروف :

ـ عندما يرتفع صوت السلام ،عندما يترددفي الاذان...اعلم أن العنكبوت أرخى حبائله وأن فريسة على وشك الوقوع .

ـ يجب التصديق .

وتساءل الوعدودي في استنكار :

ـ عدنا للمرأة ؟

ـ عدنا للسلام... سلام النفس .

وحملق فيه الوعدودي بينما استمر قاسم في شبه هذيان :

– كل المعاني الجميلة في التصديق . تدمير العالم وسلام النفس... خذ زجاجة ، كسرها ، او تمسك بها من العنق ، وابقر أخاك...افعل كل موبقة...اجمع ماشئت من مال ، واصنع حساء من تراب نقي لبطون الجائعين . واظفر بسلامك... كن طيباً ، واظفر بهنائك... لا تقل شراً . لا تعمل خيراً ، واسعد .

وكأنما أدرك الوعدودي ، منطق صاحبه ، فتصنع الجد وأتم :

– إذا تركت بنتيك ، وأسرتك ، من أجل امرأة ، وتركتك المرأة لأنها اكتشفت أن لا أضواء في طريقك ، ولا بريق ، فاصنع لها تمثالا وتعبد . لا بد من التصديق...

كن حمار شغل ربع قرن ، والمح غيرك يرقى في طرفة عين . واظفر بهنائك . لا تعاند . لا تجادل ، لا تسأل لا تجب... لا بد من التصديق... إذا قتلت وشردت الملايين ، ونصبت السلام أركان حرب ، فطف في البلاد محاضراً مبشراً باسم السيد سلام... لا بد من التصديق ، واظفر بهنائك واسعد .

وقهقها معاً ، لم تتطلع إليهما العيون الخابية ، حتى غمائم الدخان خفت ، والشقراء اختفت ، وزوجها يدفعها للخروج . لم يبق من أحد . وتأففا . وبدا شبح شرطي يحوم ، فخرجا متكئين يكمل كل منهما حديث صاحبه ، تعانقا للوداع ، والوعدودي يتصنع الجد :

– اسمع . لا امرأة ، لا رجل ، لا سلام لا عالم لا أرض ولا سماء... لا شي إلا الكأس .

— 12 —

خرج قاسم من المحاضرة مسرعاً ، شيء ما يثقله ، يدفعه إلى التفرد . منذ مدة لم يعد ينعم بأحاديث الطلبة . ربما كان عزوز وحده قادراً على إخراجه من عزلته ، او هكذا خيل لقاسم . وكم يتوق إلى حديث صريح بريء، بعد أن ضاق بأحاديث نفسه . والدروس لم يعد يحضرها بانتظام. وبذلك اتسع نطاق الفراغ حوله. وبذلك غبط عزوزاً لأنه على الأقل ، لا يجد الفراغ . ومشاكل الطلبة تجدد حياته كل يوم . والكتب لم تعد على إغرائها القديم، رغم الاجهاد والمحاولات . منفي في المدينة ، بين الضجة والزحام، فيا للمفارقة ! واعترف لنفسه بأن به شذوذاً اجتماعياً او ما يشبه الشذوذ . وكم كانت هنية تغني عن كل كتاب . أف لم تعود الذكرى، بعد الفراق الطويل ؟ كل شيء يعود به إليها. يجب أن ينسى ،وإلا فلا جدوى غير الحسرة والألم . في الكأس ينسي ، لكنه يكره نفسه عندما ينتهي مفعول الكأس ، ويعود إلى الذكرى في إلحاح . والوعدودي يغلق كل منفذ ، ولا يفتح أي عالم...

هبط قاسم درجات الكلية الخارجية بتثاقل ، كأنما يثقله زحم الخواطر ، كأنه لا يريد أن يغادر البقعة ، وتوقف عند الفضاء الخارجي ، إلى أين يتجه؟ يا للفراغ . السماء كئيبة في صبغة المغيب . كل شيء داكن وتجاوزته جماعات الطلبة ينحدر بعضها نحو المدينة وبعضها مصعد نحو الحي الجامعي . لو تناول

عشاءه معهم في الحي ،لأتعبته المسافة،وملأ بعض الفراغ. يا السخافة . كيف يفكر بهذه السفاسف ؟ وأحس بيد على كتفه :

ـ دائماً في تأملاتك ؟

ـ نعم . لا . أبداً .

كانت يد غنام وصوته ، وتلعثم قاسم بالمفاجأة . والقامة القصيرة بأناقتها الفائقة تدعوه :

ـ هيا ، تحرك يا قاسم .

وفي حيرة ظاهرة أجاب :

ـ أتحرك ؟ لا . أنا ذاهب .

وبابتسامة لا يحبها قاسم ، تساءل غنام : إلى أين ؟ تعال نشرب قهوة في« البيارتز » .

اعتذر قاسم . أشياء كثيرة تنتظره،حيث يعلم أن لا شيء ينتظره،سوى الفراغ .

وألح غنام :

ـ أدعوك ، ولا بد أن تقبل .

واحتوت لهجته غنة أمر ، لم يرتح لها قاسم . فاعتذر مرة أخرى وهو يتحرك . كفاه ، ولم يعد يريد مزيداً من المضايقات ، لو دعاه عزوز لرحب . بل لو شاهد عزوزاً لدعاه هو ، إنه في حاجة إلى سريرة صافية ، يطلعها على مكنون خواطره ، أما آخر ، وغنام بالخصوص ، فلن يجالسه إلا تكلفاً ومجاملة . ورد قاسم :

ـ شكراً ، عندي موعد .

والح غنام :

– جلسة سريعة... قهوة بسرعة . تعال يا أخي .

وتبين لقاسم أن شيئاً ما يدفع غناماً إلى الإلحاح . أهو المشروع القديم ؟ وما عسى أن يكون غيره موضوعاً لحديث بينهما ، إن تصور أحد أن بينهما حديثاً ، ام لمجرد تمضية الفراغ ؟ لكن غنام لا فراغ عنده... بل وقته يضيق عن مشاغله... وكأنما قرأ غنام ، ما يجول بخاطر قاسم ، فبادر يقول :

– اريد أن أحدثك بشيء .

ولم يخف قاسم تعجبه ، او لعله تعمد أن يبالغ في إظهار العجب .

– شيء ؟ !

وبابتسامته ، قال غنام :

– شيء هام ، وقد لا يعجبك ، لكنك ترغب فيه بدون شك .

وبنظرة لا تخلو من مكر ، كما بدت لقاسم ، تابع غنام :

– شيء يتصل بشخص تعرفه جيداً ، او تهتم به .

ولم يفهم قاسم هذا إلا على سبيل الإغراء ، إن لم يحدثه غنام عن المشروع ، فحتماً سيحدثه عن علاقته بالمنصوري ، هذا الرجل الذي أصبح في لحظة ما ، نقطة اتصال بينهما في ذهن غنام على الأقل . لكن غناماً لا يعرف أن الأشخاص والأشياء ، فقدت اهتمام قاسم ، وأن الشخص الوحيد الذي يمكن أن يهتم به ، يحاول في الوقت ذاته أن ينساه :

وتساءل قاسم :

– من يكون الشخص ؟

– فتاة مثلا ، أعني امرأة...

وقطب قاسم . ماذا سيزعم غنام ؟

قد يأتي بكل الأكاذيب . ان كان له غرض لاجتذاب قاسم إلى جلسة . لكنها لن تكون جلسة مجانية. وإلا فكل تصوراته عن غنام تحتاج إلى مراجعة. واجتذبه غنام بمرح :

ـ هيا يا أخي تحرك...

وتحركا . لم يتكلما طوال الطريق ، او على الأصح لم يخرج قاسم عن نفسه ، رغم محاولات غنام ، لاختلاق مناسبات للحديث .

ـ يجب أن نفهم الحياة .

لم يجب قاسم أو لم يسمع . وبعد فترة أخرى سأل غنام :

ـ كيف حال الوالدة ؟

ـ لا بأس .

ـ الحياة صعبة .

ـ نعم .

وكرر غنام ، كأنما يلح على أن يسمعه قاسم :

ـ يجب أن نفهم الحياة .

ـ نعم .

ويعود الصمت والطريق . الشارع الكبير يعج بأفواج الموظفين منحدرين صوب المدينة القديمة ، او يبحثون عن مكان مناسب لجلسة فارغة .

وانتحيا ركناً خالياً . جاء الجرسون .

ـ ماذا تشرب ؟

وبدون اهتمام :

– قهوة .

وتريث غنام، قبل ان يطلب عصير برتقال . ثم صفر إعجاباً وهو يغمز لقاسم ، مشيرا إلى سرب فتيات بالميني جوب :

– كأننا في لندن او باريس . .

وابتسم قاسم مجاملة . كان يتلهف لاكتشاف موضوع الدعوة ، لكنه تمالك نفسه ، وانتظر أن يبدأ غنام .

ورشفا من كأسيهما وقال غنام ، بدون مقدمات :

– عندي خبر عن هنية .

واهتزت أعماق قاسم ، أيمكن ؟ أحقاً ؟ خامره الخاطر عند تلميحات غنام الأولى ، لكنه أبعده . وتساءل :

– هنية ؟ !

– نعم . لا تتعجب . الحياة صعبة...

وتمالك قاسم نفسه ، بعد المفاجأة الأولى، وسأل :

– كيف عرفت ؟

وبرغبة في الإختصار أجاب غنام :

– كنت في الجنوب ، أتفقد المشروع . زوجها معنا .

كل شيء يسير في خطته المرسومة . مما يسر المرء أحياناً أن أموراً ما، تسير في طريقها المرسوم ، هكذا قالت هنية يوماً . لكن سير الأمور في طريقها ، كما يخططها غنام او المنصوري او كما تتقبلها هنية لا يسر قاسم ، بل يسوؤه على وجه التأكيد ، لمَ إذن هذا الخبر ؟ ما المقصود منه ؟ أهي أرسلت إليه مع غنام ؟ لمَ إذن ؟

كانت أعمال المشروع تتطلب من غنام، زيارات عدة الأقاليم . وتوطدت علاقته بالمقدري، الذي أظهر مهارة تجارية كبيرة في الجنوب. وتردد على بيته مراراً ، وهناك عرف أشياء كثيرة عن هنية وعرف اهتمامها بقاسم. وإن لم تبح بكل شيء، إنه لم يكن غبياً ، ليتبين ملامح فشلها مع زوجها ومع أسرتها . وفي عملها الخيري، رغم تنقلها الدائم في القرى والمدن، رغم الحركة المستمرة. وتساءل قاسم :

– كيف هي في الجنوب ؟

ونظر غنام برهة في وجه قاسم ، كأنما يتبين وقع ما سيقول له :

– لم تعد هناك... إنها هنا .

– في الرباط !

– في سلا .

ولم ينتبه غنام لاستغراب قاسم ، فرشف من كأسه وهو يكرر :

– الحياة صعبة .

لم يفهم قاسم شيئاً ، وبدا له أن غناماً يعقد الأمر أكثر مما يلزم. كان عليه أن يستمع إلى سير المشروع ، إلى تكدس الأرباح ، وإلى المؤسسات الإحسانية ، وإلى الحركة، وإلى الصيت الذائع في الداخل والخارج ، وأهمية الصحافة ، وأن يتقبل انتقاد ، غنام :

– كنا ولا نزال في حاجة إلى مثلك . الفرصة لم تضع منك بعد .

لم يعلق قاسم بشيء ، كأنه لا يسمع وتساءل :

– ما الذي جاء بها ؟

– المرض

باللهول، كأنما عجز أطباء الجنوب ، كأنما عجزت كل المدن الاخرى، حتى أضخمها وأكثرها مرضى وأطباء . وحتى العاصمة عجزت عن شفاء المرض، لتحتضنه سلا الصغيرة ! لعل غناماً يهزأ وينحرف بالموضوع او...الواقع ان أناقة هندامه تناسب ترتيبه لأفكاره ، فلا يقول إلا ما يشاء عندما يشاء . إنه كما يقول المثل الإنجليزي الذي يعمل بواجبه : يجذب الخيط في الوقت المناسب . على ان انتظار قاسم لم يطل ، لأن غناماً شاء أن يخبره .

يشهد غنام بأن المقدري زوج لطيف، وأنه يبيح لهنية كل ظروف الحياة ، وإن كان يعترف بأن ذلك لا يجدي، لتفاوت طبيعتيهما، وللظروف التي تم فيها زواجهما، ويبدو لغنام، أن هنية كانت تكافح ضد مشاعرها، وضد تدفق الحياة في كيانها . لذلك لم يفلح أي شيء في استغراقها وإفناء طاقتها ، فاعتراها بعد شهور من العمل، شرود ملازم متقطع . ما لبث ان تطور إلى انهيار عصبي خطير ناتج عن تأثر نفسي ، وهكذا لم يكن مفر من أن تنقل أخيراً، إلى مستشفى الأمراض العقلية بسلا ، حيث هي منذ الأمس، والحالة كما يصفها غنام خطيرة جداً ، ومما يضاعف ذلك، أن لا أحد من أسرتها يستطيع المكوث بجانبها لا الزوج و لا الأب . وربما كان الأنسب للمريضة، أن تنفصل عن كل أفراد أسرتها مدة العلاج ، حتى تخرج عن الجو الذي أودى بعافيتها . بل هناك أمل كبير في العثور على عامل قد يساعدها، على الخروج من محنتها ، وهو قاسم .

وبدا أن غناماً يعرف كل شيء، بل ربما كان يعرف أكثر مما يعرف قاسم، عن مشاعر هنية نحوه ، وأثر ذلك فيما آلت إليه . وبدا ما هو أكثر من ذلك، وهو أن غناماً قد خطط كل شيء. وتصور قاسم أن غناماً قد يكون هو الذي اختار سلا بالخصوص، لاستشفاء هنية لعدة أسباب، لا زال بعضها خفيا ، إلا أنه يتلخص في شيء واحد، هو سلامة المشروع والاحتفاظ بنشاطه في الجنوب، بعد أن بدا أن حالة هنية، قد تهدد كل ذلك . ولم يمض الحديث طويلا حتى

تبين لقاسم أن غناماً إن كان قد اختاره للسهر على هنية ، فذلك يرجع إلى علاقة قاسم بالطبيب رئيس المستشفى ، الذي كان أستاذاً لكل منهما في دراسة الباتولوجيا .

وكان بوسع غنام،أن يستغل معرفته الخاصة بالطبيب لولا أنه لا يجد متسعاً لذلك ، بينما يملك قاسم كل الظروف المواتية : علاقة بالمريضة وصداقة الطبيب والفراغ . بدا كل شيء مهيأ ومحبوكاً،وما على قاسم إلا أن يتحرك لينفذ . كأنه شد بوثاق متين إلى عجلة ، وآن للعجلة أن تدور .

وحاول قاسم أن يخفض انفعاله بما يسمع . مزيج ارتعاش ورهبة وغضب يخالط مزاجه ، وتحركت يداه تدعكان وجهه ؛ بينما رشف غنام من كأسه بهدوء ، وعاد يقول :

ـ الحياة قاسية يا قاسم .

وارتسمت ابتسامة مرارة على وجه قاسم ،وهو يقول :

ـ إننا نجعلها أشد قسوة .

وأكد غنام :

ـ النتيجة واحدة .

ـ كلا .

وأكد غنام :

ـ ما الذي يتغير ؟ سواء كانت قاسية او كنا نجعلها قاسية،فالنتيجة واحدة .

وبعزم من كان يبحث عن متنفس فاهتدى إليه أخيراً ، رد قاسم :

ـ كلا . قد تبدو النتيجة القريبة ، النفعية او السطحية،واحدة؛أما في العمق، فالنتيجة مختلفة .

ولم يبد على غنام ترحيب بالنقاش ، ولكنه تابع قاسم مستفهماً :

– لم أفهمك .

– الأمر سهل إذا كنا نحن الذين نجعل الحياة قاسية ، فالنتيجة أننا نتحمل مسؤولية ذلك ، أما إذا كانت قاسية بطبعها ، فلا مجال لمسؤولية .

لم يفلح قاسم في إخفاء انفعاله وهو يتحدث . وكان في قرارة نفسه يناقش حادثاً معيناً ، وأشخاصاً معينين ، هم هنية والمسؤولون عن حالتها . ولأول مرة أحس بقدرته على محاكمة الناس . هذه القدرة التي كانت ترعبه في القضاة دائماً . كيف يتيسر لأحدهم أن يصل به اليقين والقوة ، إلى أن يجزم بحكم في حق الغير ؟ وبأية قوة لا يبدو كل حكم قابلا لنقيضه ؟ لكنه يفهم الان أن لا بد من أرضية نقف عليها ، حتى لا نحيا مجاناً . ويبدو له الان أن المسؤولية هي هذه الأرضية الصلدة ، مسؤولية واقعية لا يبدو فيها الشيءونقيضه متلازمين،إلى الحد الذي كان يرعبه . وخيل إليه لأول مرة أن تأملاته القديمة وسائر ما كان يشغل به ذهنه من جدل ، يبدو شديد الإنفصال عن شيءيسمى الواقع ، لكن الواقع لا يزال يبدو غير محدد . لكن على أي أساس نرفض او نختار؟ على أي أساس نحدد المسؤولية ؟ يبدو التحديد صعباً سلبياً ، ولكنه ثابت صلد ، فلنحدد أولا ما ليس مسؤولية ، وهو استغفال الاخر.والتحايل عليه والمس بكرامته... وبذلك قد نصل إلى قيمة ثابتة ، او نحاول بحثاً جديداً .

كان غنام يتابع جدية قاسم،الذي بدا كأنه يكتشف في كل خطوة جديداً ، متحدثاً عن العدل والحب والحرية والكرامة ، وبدا غنام غير قادر على كبح التيار ، بل لم يكن يقدر ولا يرغب،في أن يمتد بهما النقاش إلى هذا الحد. ولعله لم يكن مستوعباً لكل ما فاه به قاسم على وجه الإجمال.لذا وجه الحديث نحو نقطة معينة ، أدرك أنها كانت نقطة انطلاق قاسم ، فقال :

ـ وفي حالة هنية ، من المسؤول ؟

بدون تردد وبحزم وثبات ، أجاب قاسم،وهو ينظر إلى عيني صاحبه ويشير بسبابته :

ـ أنت ، وهي ، قبل أي شخص آخر...

وقطب غنام للمفاجأة ، وسرعان ما محا كل أثر لانفعاله،وابتسم قليلا ، بينما تابع قاسم خواطره: هنية مسؤولة،لأنها قبلت أن تكون كبش الفداء، أما غنام فهو نسخة متكاملة من عدة نماذج ، إنه شتات الزوج الغافل المتهافت على الثروة ، ورجل الأعمال ، والوالد المتهالك ، والوسط العفن الذي يمتص دماء جيل كامل بالدعوات الصالحات . وإنه الذات المترددة المقوقعة في أعماق قاسم ، والتي يحاول الانفلات منها أخيراً ، لاتخاذ قرار...

وعلق غنام على رأي قاسم بفتور مبالغ فيه :

ـ لم تزد على أن اتهمت الجميع .

ورد قاسم . كانت روح جديدة تركبه :

ـ ليكن . لتكن ، هذه بداية . ومن الاتهام نستشف البراءة .

ساد الصمت بينهما ، وقطعه غنام ، وهو ينظر إلى ساعته كمن يتحين فرصة لإنهاء الجلسة :

ـ يعجبني شيء واحد في حديثك .

واستفهم قاسم ، فرد غنام :

ـ كنت ترى ، أننا لن نلتقي ، لكننا سرعان ما التقينا ، في النظر والعمل :

ـ هه ؟

وأوضح غنام :

- التقينا حسب رأيك في أننا متهمين ، أما في مستوى العمل، فنحن معاً نهتم بهنية ، وهذا يبشر بلقاء آخر قد يكون أهم .

لم يرد قاسم ، فأشياء كثيرة كانت تتزاحم في ذهنه ، وهو بحاجة إلى وقت ليميز بينها ، إلى عزلة مؤقتة . وهنية بالنسبة لغنام جزء من مشروع ، أما بالنسبة له فهي شهادة على إجرام تتحرك. ونقطة الإلتقاء كما يراها غنام، تبدو مفترق طريقين لا يتصلان أبداً . أعاد غنام النظر إلى ساعته، وقال محاولا ألا يكون لحديثهما، بقية تأثير في نفسيهما :

- قد نعود إلى الموضوع . أما الان فعندي موعد مع محام صديق ، وأدعوك لتصعد معي نحو أكدال .

ورد قاسم ساهماً :

- آسف . سأنحدر نحو البيت .

وأحس برجليه تطآن الأرض بقوة وهو ينحدر...

خواطر كثيرة تتصارع فيه ، عليه أن يفحصها بهدوء .

— 13 —

كان الطبيب ينصت، وقد تأخر بمقعده عن مكتبه واضعاً إحدى ركبتيه فوق الأخرى، وعندما توقف قاسم . سادت لحظة صمت. بدا أن كلا منهما فيها غافل عن الزمان . لكن نقطة مشتركة كانت تجمعهما وهي حالة المريضة . كان قاسم في حديثه صريحاً ، يتقصى كل ما يعرفه. أو يتصوره عن هنية في علاقته بها، وبأسرتها، وبزوجها، وبمزاجها قبل الإصابة. وبدا الطبيب مهتماً بما يسمع . يسجل بين الحين والحين، شيئاً في ملف أصفر أمامه ، طواه بعناية وهو يشكر لقاسم صنيعه ، إذ أن افتراضات الطبيب، تحتاج إلى سند من الأحداث، ما كان ليقدمه زوج المريضة، ولا والدها، لا وسيلة للكشف عنه ما دامت المريضة تلوذ بالصمت منذ شهور .

كان هذا، أول ما يترامى إلى فهم قاسم من أمارات إصابتها. وساءل :

— أهناك أمل ؟

— طبعاً . هناك أمل .

لكنه لم يخف على قاسم خطورة الحالة ، حتى بدا وكأن جوابه، لم يكن إلا مجاملة آلية، تعودها لكثرة ما أجاب بها ، ولأن قاصد الطبيب إنما يرتبط به عن طريق هذا الأمل . لكن موقف قاسم، كان بحيث يسر للطبيب أن يصارحه .

بلغت حالة هنية أقصى ما يبلغه انهيار عصبي، ومنذ شهور، لم تنطق بكلمة رغم محاولات الأهل والأطباء كانت في شرود مستمر، كأنما لا تعي شيئاً مما يدور حولها، والجملة الوحيدة التي فاهت بها، وهي تدخل المستشفى منذ يومين، طلبت بها بعض دفاتر خاصة، قديمة، وإلى ذلك كانت تعزف عزوفاً مطلقاً عن الطعام، ولم تكن تقتات إلا بحيل طبية دون وعي منها. لقد بدا أنها فقدت كل دافع للتمسك بالحياة، وأنها فقدت حاسة الألم فلم يعد يهمها شيء مما يعتري كيانها الجسمي، وأنها مستمرة في الإنغلاق على عالمها الداخلي، والهوة عميقة بينها وبين ما يجري حولها. وكل جهد يبذل لإنقاذها، يجب أن يتجه إلى الكشف عن مكمن إرادتها اللاشعورية، في الإنفصال عن الواقع، لكن هذا يتطلب حالة جسمية تصمد لهزات، قد تكون عنيفة أثناء العلاج. ويتطلب استجابة بيولوجية، يبدو أن التدهور الجسماني للمريضة يحول دونها، ومن هنا سيقسم العلاج على مراحل. فيعني بالعلاج الجسمي أولا، وبصفة خاصة رفضها للطعام المتجلي في انعدام مقيت للشهية، إلى حد يدفع للغثيان.

فإذا نجح ذلك واستردت المريضة مستوى من الحياة النباتية، أمكن إذ ذاك بداية مرحلة ثانية قصد إشعار المريضة بما حولها، ولن تسترد قابليتها للكلام إلا في مرحلة معنوية أخيرة. وكرر الطبيب عدة مرات بأن الحالة خطيرة جداً، ونادرة الوقوع، على هذا النحو من العنف. لذلك، فالأمل بعيد، وأبعد منه أن تسترجع المريضة، عافيتها كاملة كما كانت من قبل.

استمع قاسم بوجوم، وتساءل أخيراً إن كان يستطيع أن يفعل شيئاً. وكان الطبيب على وشك أن يحدثه في ذلك، لكنه تراجع، وأعلن أن لا فائدة من أي شيء في مثل ظروفها؛ وحالتها لا تحتمل أية هزة أو مفاجأة. لذلك ستظل في عزلتها وكأنما قرأ الطبيب شيئاً في عيني قاسم، فقال:

– افرض أننا الان في آخر مرحلة العلاج. وأنك ظهرت أمامها... هل تتابعني ؟

– نعم .

– ما الذي سيحدث ؟

– لا أدري .

وتريث الطبيب قليلا، قبل أن يحور السؤال . عن مدى احتمال انفصال هنية عن محيطها القديم، فيما لو استعادت عافيتها. او بعضها على الأقل . وبدا اليأس على قاسم . لو استعادت عافيتها، لما فعلتْ غير ما فعلتْ . وحرك الطبيب رأسه موافقاً على استنتاج قاسم ، وأردف :

– هذا يضاعف صعوبة العلاج .

وبدا أن موضوع الزيارة ينتهي ، فتساءل قاسم في تردد :

– يمكن ، أراها ؟

ونظر إليه الطبيب قليلا :

– ممكن... من بعيد .

وفي اللحظة، فتح الباب وأطل ممرض ، فخرج في أثره قاسم ، وواجهه عند الباب كهل يبدو قوي البنية، ملتحياً، بجلابة ناصعة البياض، وبجانبه شخص قصير، أسمر، في بذلة مهملة، ترك في نفسه انطباعاً بالنفور. لم يكن قاسم في حاجة إلى اعمال فكر ليتبين هوية الشخصين : زوج هنية ووالدها . لقد أخبره الطبيب بموعد زيارتهما . كانت بقاسم رغبة قوية لتأمل ملامحهما ، لو سمحت الفرصة . يريد أن يقرأ معالم الذنب على وجهيهما . حقاً إن هناك نفوساً تتمتع بمناعة ضد أي شعور من هذا القبيل ، فلا تقلق من أجل شيء، ولا يخامرها شك في مواهبها ومواقفها .

وانحرف به الممرض نحو سلم إلى اليسار . صعدا ، وفتح الممرض باب حجرة صغيرة. وأشار إلى قاسم أن يدخل. وانصرف . كانت الواجهة الزجاجية تطل على ساحة صغيرة مغروسة أمام مكتب الطبيب. ويبدو في أقصى اليمين المدخل الزجاجي الرئيسي المؤدي إلى حديقة المكتب . وظل قاسم ينتظر، لحظة يرى فيها هنية . ترى كيف شعورها الآن ؟ وانفتح المدخل. وبدت ممرضة تتقدم ببطء ويدها مستطيلة وراءها. تجر شيئاً متمنعاً . وبدا خلفها هيكل يتحرك، كان فيما مضى هنية . كيف ينتسب هذا الشبح إلى الكائن اللطيف، المكتمل، الذي كانت إياه . أية أثقال تحملها على الكاهل المحني، الضعيف ؟ كيف تقلصت إلى هذا القصر، إلى هذا النحول ؟ أي خواء في النظرات ؟ تكاد تتهاوى في مشيتها، وفي حركاتها نزوع إلى الفرار ، إلى الوراء . وشعرها كان الشيء الوحيد، الذي لا زال كالعهد به ، وربما بدا أكثر ازدهاراً ، كان ينسدل في حرية على ظهرها. القميص الفضفاض الطويل، يشي بعظام واهنة في داخله . وكعبان معروقان في بياض الثلج يبدوان عند الخطو ، بين الشبشب وأسفل القميص . كل شيء فيها قد استحال إلى بياض، يوحي ببرودة مرعبة ، وصلت حد التجمد . لم يكن يرى سوى صفحة جانبية من وجهها . وعندما غابت داخل مكتب الطبيب ، ظل شارداً في خواطره. هناك بين تلك الجدران، أشخاص ثلاثة لا رابط بينهم رغم كل الروابط : حمل ومدية وجزار . ما العلاقة بين هذا الثالوث المتلازم ؟ أي زيف تنطوي عليه حياتنا... عندما يعتلي الجزار ربوة ، ويرفع صوته بالنصح للقطعان : خير لها أن تسمن، أن تسلم ،وتتوالد وتسلم أعناقها...وعندما يبدو على محياه الأسى، وهو يرتد بيده الضخمة عن شاكلة خروف لم يرقه : لم يسمن بعد ، أو هو مريض أو جائع...

وعندما تقول المدية : إنني ألمع صفاء، ونقاء؛ فيا لسعادة رقبة أمر بها... أي

زيف يبلغ منتهاه عندما يصيح الحمل بدوره : أيها الجزار يا يد الرحمة . يامدية طاهرة ، إني أتلهف لمعانقتك... أية ملهاة ومأساة نمثل ؟...

وبدا الثالوث خارجاً من مكتب الطبيب ، يسندها الوالد والزوج، على تنافر قامتيهما . كانت مستسلمة للسير، يوجهان خطوها الوئيد ، رأسها منكس كالباحث عن شيء ضائع .

غاب الثالوث والممرضة، نحو جناح المرضى ، وعاد الممرض يقود قاسماً إلى الطبيب ، بطلب منه هذه المرة .

وحين دخل ، بادره الطبيب وهما واقفان :

– لم تنطق بحرف .

وتساءل قاسم :

– وماذا يقول الوالد والزوج ؟

وأجمل له الطبيب الموقف . لا يساعدان على شيء ولا يفهمان شيئاً ، ولا يملكان لها سوى العطف .

العطف . أي عطف بين الثالوث المتلازم ؟

ومد الطبيب يده إلى بضعة دفاتر، تصفحها وناولها لقاسم . كانت جملة ما طلبت إحضاره بالأمس ، في جملتها الوحيدة القصيرة ، لكنها اليوم لم تتفقد شيئاً أو تهتم بشيء. كانت مذكرات خاصة، وبضعة دروس عرف فيها قاسم خطه ، من جملة ما كان ينسخ لها من دروس...

وتساءل قاسم :

– ماذا قصدتْ بطلب هذا ؟

ورد الطبيب وهو يستعيد الدفاتر :

- إنها ما تزال عالماً مغلقاً، ولا يدل هذا على شي، وقد تكون في عالمها الخاص، تحاول استعادة ماضيها، مادام الحاضر والمستقبل لا يثيرانها .

وأشار إلى أوراق أخرى :

- هنا دفاتر تعود لدراستها منذ عشرين سنة... وفي هذا خطر على العلاج...

وبدا أن خطة العلاج تقتضي منع كل ما يمت إلى ماضيها . إنها تتشبث به مضى وتحاول إحاطة نفسها بمعالمه ، بينما يجب السير بها في اتجاه معاكس يشعرها بحاضرها ومستقبلها . حرمان آخر، يضاف إلى ما قاست وتقاسي في صمتها وعزلتها.

- حرمان ؟ هذه لفظة أقوى مما يناسب في هذه الحال .

بذلك ختم الطبيب حديثه .

— 14 —

ـ ولد عمك عندنا .

قالتها الأم ، بمجرد ما فتحت الباب لقاسم .

ـ ولد عمي ؟

ـ تعال .

وتبعها إلى الغرفة ، حيث واجهه شاب قروي في مثل سنه ، وسيم قوي البنية ، قام يعانقه .

ـ كيف الحال يا سي قاسم ؟

ـ كيف عمي ؟

وجلسا كل منهما يرنو إلى الاخر ، والتشابه واضح بينهما .

ـ لا بأس . أنت لا تعرفني .

ـ لم نلتق من قبل .

وتدخلت الأم ، كانت قد حكت كثيراً لسليمان ، في غيبة قاسم :

ـ إن شاء الله ، تكون البداية .

ـ إن شاء الله .

ـ عمي ، كيف هو ؟

وبدأ الألم على وجه سليمان ، وهو يقول :

ـ أبويا المسكين في حالة... الله يلطف .

ودلت حركاته على الشدة، التي يمكن أن يكون فيها والده . وتساءل قاسم إن كان عمه سيموت حقاً . كان قد شاهد الصراع بينه وبين أزمات الربو والكحة ، لكنه سلم بانتصار عمه . إن عشر معشار ما بالعم من علة. كاف ليودي بحياة أقوى الأشخاص . لكن العلة قد تموت قبل أن يموت عمه. بيد أن حديث سليمان جد ، ويبدو واضحاً أن الحاج علي ، في حالة تستوجب الهلع .وقال سليمان إن أباه كان عازماً على اصطحابه معه. ليتعرف على سي قاسم . إلا أن المرض أقعده ، وجاء سليمان وحده للتعارف .وربما لشيء آخر لا يقل أهمية.

وبدا الاستفهام على قاسم . ما عساه أن يكون هذا الموضوع الاخر ؟

ـ الأرض ؟

لم يفهم قاسم ، ولكنه بدأ يلمح شيئاً ، في ذكريات بدت له بعيدة ، وقال سليمان :

ـ أرضنا... أرض الجماعة ، سنذهب إلى الحاج المنصوري مرة أخرى . لم يبق إلا أن يحدثه عن غنام ، والمقدري ، وهنية ، ووالدها . الشبكة ممتدة على أوسع نطاق . فليستمعْ إلى بقية حديث ابن عمه ولينتظر مزيداً من المفاجآت .

سليمان يتحدث باعتزاز ، ويلمح إلى عبقرية والده : أثمرتْ وساطة المنصوري ، وابتعد كثير من المتدخلين عن الأرض ، وأصبح من المؤكد أن توزع على فلاحي القرية ، بالتساوي . إنها مرحلة تتحقق من تخطيط الحاج علي . والان يقعده المرض ، عن إتمام المرحلة الأخيرة الهامة الحاسمة . لكن ثقته في المنصوري كفيلة بتحقيق الغرض ، لذلك بعث أكبر أبنائه ، وعلى قاسم أن يتوجه معه إلى المنصوري ، وتأتي البقية بسهولة .

على الحاج علي أن ينحرف الان بموضوع الأرض من اعتبارها للجماعة . يجب أن تقسم بالتساوي ، إلى أرض تعاد لمالكيها الأصليين . ويجب أن يلعب المنصوري دوره هنا ، والباقي على الحاج علي . يتدخل المنصوري بوصية أو

كلمة،ويضع الاخر حجج الملكية . سليمان متفائل من العملية او هو يعكس تفاؤل والده، ويؤكد لتردذ قاسم،أنها ليست المرة الأولى التي ينجح فيها والده، في مثل هذه القضية :

– عملناها... وعملنا أكبر منها...

ورنا قاسم إلى حماسة ابن عمه ، لم تكن فيه من خشية او تردد ، وهو يعلن أن جزءا من الأرض المستردة سيكون قسمة بين قاسم وعمه ، كأنما في هذا تعويض له،عن ظلم سابق لحقه،او هو إغراء له بالسعي لصالح عمه. مرة أخرى يجد قاسم نفسه،وقد أعد له الدور واللباس وما عليه إلا أن يصعد الخشبة. ومرت بذهنه أطياف هنية ، هي أيضاً كان قد أعد لها كل شيء،وكان عليها ان تخطوّ مجرد خطوة بسيطة،ثم لا تملك التراجع بعدها . الخطوة السحرية انتهت بها إلى ما هي فيه .

واكتشف قاسم أن دقائق معدودات فقط ،مرت على تعارفه بابن عمه ، وإذا هما في موضوع بالغ الجدية .

وأعجب إعجاباً مريراً بهذا الشاب القروي،الذي لا يضيع وقتاً ، ويهجم على موضوعه مباشرة . إنه من طينة أنبتتْ الحاج علي . ووجد متعة في استفسار سليمان :

– الجماعة لهم أرض ؟

وبملامح احتقار بالغ أجاب سليمان مستنكراً :

– لهم أرض ؟ ! كلهم خماسين علينا .

كان يعرف هذا جيداً . والدته أخبرته من قبل ، وعمه لم يبخل بالتلميح إلى ذلك ، وابن عمه جد معتز . لم يبق إلا هو .

ليحتقر تلك الخلائق من الرعاة والخماسين ، والأمل يراوده بامتلاك

أرض . كأنها لا تعلم من هو الحاج علي ، كأن الأراضي التي يمتلكها هذا الرجل،لم تكن لها يوماً قبل أن تنتقل إليه . يا لسذاجتهم عندما يقعون في الأحبولة أكثر من مرة،ولا يستفيدون. أهو الطمع أم الفقر؟ النتيجة واحدة . إنهم يفقدون الأرض بنفس الطريقة .

وتساءل قاسم عن مساحة هذه الأرض المزعومة للجماعة .

– عشرين ، ثلاثين هكتار...

– والجماعة ؟

– سبعين ، ثمانين رجل .

وبدت العملية بسيطة في الحساب : تؤمل الخلائق الساذجة أن تمتلك نصف هكتار للواحد أو أقل.عملية بسيطة في الحساب والتوزيع لكنها معقدة في التوزيع أو هكذا تبدو. أما السهولة والبساطة في الحساب والتوزيع فهي أن تضم العشرين، الثلاثين هكتار ، إلى ملكية واحدة أكبر...!

وسأل :

– كم تكون أرض العم ... ؟

وتردد سليمان،كأنه لا يدري،أو على الأصح لا يدري كيف يجيب. أيقول إنها ثمانون هكتاراً المصرح بها في دفتر المراقب لتدفع عنها الضريبة ؟ أم يقول انها تزيد على الثلاثمائة كما هي في الواقع ؟

وهل يقول بين هذا وذاك حكايتهم مع المراقب الفلاحي ، والمساومات التي تجعله يقبل تصريحاتهم ، ويعدلها حسب مشيئتهم ؟

ولم يطل تردد سليمان . فقد جمع كل هذه الأحداث في كلمة :

– ثمانين... ثلاثمائة هكتار... المراقب يعرفنا .

وفهم قاسم كل شيء بحركة معبرة ، من أطراف وملامح سليمان الذي ما لبث أن استدرك كأنه غير واثق من فهم قاسم ، ويريد في نفس الوقت تطمينه :

– الخير عندنا كثير ، إن شاء الله تزورنا وتشوف بعينك .

وتمتم قاسم شاكراً . بينما أكد سليمان ، على زيارة المنصوري صباح الغد .

ولم يرد قاسم على أن قال :

– إن شاء الله .

* * *

وشاء الله أن يرى قاسم المنصوري، ليلته تلك قبل الصبح. مثل له أكثر من مرة بين نوم متقطع . والعم على فراش أبيض وسليمان يشجع : هيا يا ابن العم... ارضنا نحن الكبار... نموت من أجلها... والخماسون والرعاة ، وخلائق معوزة ترقص طرباً وهي تزف العم إلى الأرض... والشبح الباهت يتحرك بين هيكلين وراءهما ممرضة وملف أصفر... وإغراء غنام : كن شريكاً في المشروع . وإغراء سليمان : كن ملاكاً في القرية ، وحكايات الأم تتداخل بحكايات العم...

وتناهى إليه آذان الفجر وهو يتقلب ذات اليمين وذات الشمال ، بين الرؤى المزعجة والنوم المتقطع ... وسمع حركة والدته تقوم للوضوء ، وشخير ابن العم قريباً منه يشي بنوم سعيد آمن ، كنوم الأرض في حضن السماء .وثقلتْ رأسه فلم يفق بعد ذلك إلا على صوت والدته، تدعوه للفطور : ليجد سليمان يتأمله في هيئة من استيقظ قبله بكثير ، وظل ينتظر صحوه :

– صباح الخير .

واستأنف سليمان دون أن ينتظر رداً .

– تنام كثيراً .

بل نفيق متأخرين ولا ننام إطلاقاً . أما أنتم فبعد احكام الشبكة، تنامون سريعاً وبعمق ، وتفيقون باكراً حرصاً على الشبكة أن تفلت منها الأرانب...

كذلك كان قاسم يفكر ، وهو يغتسل .

تزور القرية إن شاء الله ، وتتعرف على حياتنا أو ترى أرضك وتشم تراب أجدادك،وتتزوج وتموت وتحيا... وتجيع الخماسين وتشبع ، وتستولي على أرضهم وتأكل اللحم نيئاً،وتصبح سيداً وعظيماً وتستنجد بالمنصوري إذا حلت بك ضائقة... نغم عنيف مخلوط بألف نشاز مصم يطرق رأسه منذ الصباح ، وقبل أن يجلس للفطور . ودار الحديث حول المائدة فاتراً كأنما كان سليمان وحده المنشرح بينهم ، وأعلن لقاسم أنه عين له واحدة،من أجود بقراتهم هدية له ، بعجلها الرومي الصغير :

ــ عجلك يا قاسم أجود عجل في القرية .

وتمتم قاسم شاكراً ، بينما تدخلت والدته :

ــ وأنا ؟ ما هديتي ؟

ــ كل الخير لك يا خالتي . قاسم عاش كالغريب .

وخرج إبراهيم . مر بهم وهو يتمتم خجولا :

ــ صباح الخير .

ويخرج متأبطاً دفاتره كالهارب ، غير ملتفت لسؤال الأم : هل أفطر ؟ والتفت سليمان كالمستغرب . لم يلحظ حتى وجود إبراهيم من قبل ، كأنه كان يتعمد الإختفاء . بيد أن استغراب سليمان لم يجد جواباً .

اكتفت الأم بأن تململت ، أما نظرة قاسم فقد كانت فارغة . ماذا يقول لهذا القروي الملهوف على الأرض ؟ أيقول أن إبراهيم بطاقة تعريف غفل ؟

وساد صمت مربك ، الكل يفكر في نقطة واحدة . ولفت الأم ذيول دفينتها ، كأنما تلم صفحات ماضيها المبسوطة أمام الجميع ، كأنها عارية ، كأن الدنيا برد قارس ، وتمتمت...

– إنه رجل كقاسم .

لا أحد يسمع أو يرد ، وكأنما حاول سليمان إصلاح موقف، يوشك أن يفلت ، فقال محركاً رأسه علامة للتأكيد :

– نعم . يشبهه كتوأم .

هكذا تنسدل أقنعة النفاق . فمتى تتمزق؟ لو كان العم هنا لقال نفس الشيء في مثل هذا المجلس ، لينفرد بقاسم فيما بعد ويهمس له : أنت رجل وتفهم . وليؤكد لنفسه بأن زوجة أخيه، ارتكبت إثماً بعد وفاة زوجها بسنوات ، وليقول قبل ذلك لزوجة أخيه المرحوم، بعد أن قامت بعدة مناورات لإفهامه تواريخ الإزديادات والوفيات : أنت فاضلة حلت البركة على المرحوم بمجيئك . لو كان ألف رجل من قرية العم، لقالوا نفس الشيء...ولا يدركون آلام نفوس بشرية بما يفعلون ويقولون ... آلام بقرة أو عجل، أقرب إلى نفوسهم من ذلك...فليمزق هذا القناع منذ اليوم...

– قلت إنه يشبهني يا سليمان ؟

– من ؟

– إبراهيم أخي .

وهش سليمان على وجهه بيده . لم يكن ينتظر هذا السؤال . حقاً لم يلحظ وجود إبراهيم،ولم يسأل عنه ، لكنه يعرف كل شيء من والده . ونظرة الإستغراب التي بدت عليه إنما كانت غفلة منه وسذاجة ... خروج إبراهيم بتلك الطريقة هو الذي فاجأه ، وجود إبراهيم ذاته . ما زال قاسم ينتظر الجواب .

– نشابه الإخوة يا قاسم... أنا شبيه...

وقاطعه قاسم :

– إبراهيم ، أصغر مني بعشر سنوات تقريباً .

اشتد حرج الأم ، وخيل لقاسم أنه يتسمع دقات قلبها الواجف .

وبدت على سليمان حيرة ، حاول معها تغيير الموضوع :

– متى نزور المنصوري ؟

وأمعن قاسم في اتجاهه كمحموم ، كمخبول انتابته نزوة تقطيع :

– كنا نتكلم عن إبراهيم ، أخي !

يا رحمان . الأم تستغيث ، ونظرات استرحام إلى قاسم... وابتسامة باهتة على وجه سليمان ، محاولا تغيير الموضوع في يأس :

– في القرية ... والدي يحتضر ، ينتظر ...

وبدا أن قاسماً يتمسك بالموضوع ، فتمالكت الأم نفسها وقامت ترفع الصينية ، في حركة تشي باضطراب عنيف...

قال سليمان في لهجة حادة هامسة لقاسم ، وقد خرجت الأم .

– لا أفهمك ... لا داعي ، كلنا نعرف... ما فات مات... والنساء ناقصات... لماذا تجرحها ؟

ورد قاسم في حزم :

– لا أجرحها .

– يعني ؟

– يعني ... أن نفتح العيون ونزيل العمش .

وأحس كأنه يجابه خلائق قرون معمشة ، لا تنظر إلا كما تحب وكما علمت أن ترى ... نظرة شزراء مقيتة لوجود الاخرين ، ولهفة على ما بأيديهم ، ثروة أرض ، وعفن يتراكم . لو اغتصب العم زوجة أخيه كما تعبر هي... لو كانت ثالثة او رابعة في حريمه على الحلال كما يقول هو ،لكان إبراهيم شخصاً آخر، ربما كان سليمان ذاته او توأمه وشبيهه ، ولكانت بطاقة التعريف قانونية...

وشده سليمان . عبثا يحاول أن يقاطع تيار قاسم ، فوهة البركان عندما يتمرد على الصمت :

– يا ابن العم... يا ابن العم...

خلائق الخماسين والرعاة تزف سليمان ، الحاج سليمان ، الحاج قاسم لن تملك الخلائق موقع قدم على الأرض ، كما لم تمنح بطاقة تعريف لوجود غفل... والمنصوري شبكة على مدى أوسع .

– يا ابن العم... عمك ينتظر... يحتضر !

ساد الصمت أخيراً . هدأت فورة البركان ، ولا يدري أحد متى تعود فورته . سليمان أخذه التهيب والرجفة ولم يهتد إلى استجابة . وصوت انتحاب الوالدة يتسلل من بعيد رغم التكتم... تهيأ قاسم للخروج ، يتفقد جيوبه... يلم شيئاً ويضع آخر ، دون كلمة... واتجه نحو الباب وإحساسه قوي، بنظرات سليمان المتطلعة المتسائلة في لهفة ، وحيرة :

– متى نزور المنصوري ؟

ودون ان يلتفت قاسم ، أجاب في دخيلة نفسه، وبصوت يسمعه جيداً :

– المنصوري يحتضر أيضاً ، بالنسبة لي على الأقل .

— 15 —

لم يفاجئه أن يكون ابن عمه قد غادر البيت، حين عاد هو إليه . ولم ترفع والدته النظر إليه عندما فتحت الباب ، ولا هشت في وجهه كعادتها . وانتبه إليها وهي تتدحرج أمامه، منحرفة نحو المطبخ كمن ينطوي على جرح عميق . كانت تتحرك في الألم . ليكن . فلا أحد بدون ألم . ربما كانت آلامها أقل حدة من آلام آخرين ، ربما كانت آلامها وهمية ، لو نظرت إليها بعين أخرى ، بعين قاسم مثلا . لكنها تأبى إلا أن تنظر إليها من خلال ظلام قرون ، وتنكشف لنفسها كل يوم ، جريمتها كإثم عذراء .

مهما تكن آلامها، فقد تكون آلام إبراهيم أشد، وكان بالامكان أن يتجنب ذلك ، لولا سخافاتها المتكررة لإثبات تواريخ زائفة للوفيات والازديادات ، لولا ذلك لتجنب الفتى إحساساً بلا مشروعية وجوده ، ما دامت قد عزلته عن المحيط الذي يشعره بذلك ، محيط العم والأقارب . ولو كانت كما يريد لها قاسم أن تكون ، لما احتاجت إلى كل ذلك التخفي عن لحظة من حياتها ، ولأفهمت الجميع بلسان صريح، أنها تزوجت للحظة بلا عقد بعد المرحوم. أو أن الزوج اختفى أو هرب ، لكنها تمعن في التعبد لتمثال الطهارة كما علموها أن تفعل ، لتعلن أنها ظلت وفية للمرحوم ، وأن إبراهيم مقارب لقاسم في السن، كأنهما توأمان، رغم فارق عشر سنوات. فلتخطيء التاريخ، ولتتذوق عذاب ذلك...

فتح قاسم باب الغرفة ، فقفز إبراهيم عن المكتب مرتاعاً، كعصفور بلله

القطر . كان منهمكاً في كتابة شيء . وبدا القلم يرتعد بين أصابعه، ورأسه إلى الأرض . متى يعتقد بمشروعية وجوده ؟ متى يطمئن إلى نفسه وإلى الغير ؟ ومحاولات قاسم لتهدئته ، لم تتوج بعد .

ربت على كتف أخيه في حنو زائد :

ـ ماذا تفعل ؟

لم يرفع إبراهيم رأسه :

ـ لا شيء .

متى يتعلم النظر إلى الغير بقوة ؟ . أي خاطر أسود في ذهنه عن الوجود ؟ كأنه الوصمة الوحيدة في الوسط الطاهر . يا أخي، لو تعلم أنك قد تكون أطهر بقعة... والهروب لن ينفعك...

ـ أتكتب ؟

وتمتم إبراهيم :

ـ الإمتحانات قريبة...

لكنه لم يكن يهيء للامتحانات القريبة، فقد كان دائماً في امتحان . تفوقه المستمر، لا يعزى لغير الخوف من أن يضيف وصمة أخرى إلى وجوده، وصمة الفشل في الدرس . متفوق دائماً ، متخوف دائماً من كل امتحان ، غير مصدق أنه ينجح، ويتقدم رغم التقدم والنجاح. لكنه لم يكن يهيءلامتحان هذه المرة، الدفتر الأزرق يشي بذلك .

وقاسم يعرف... دفتر مذكرات ومقطوعات، وقصائد مبتورة...لكنه يتخفى، كما يتستر امرؤ على عورة .

وبحث قاسم عن يد أخيه المضطربة ليمسكها، وليظهر تفاؤله بمستقبل أخيه،

يذكره بتفوقه المستمر . برأي أساتذته فيه..وترتعش ابتسامة مترددة، مكبوتة، ترفض شفتا الفتى أن تمارساها .

– ماذا تكتب ؟

– لا شيء ؟ .

– شعراً ؟

– ...

ويزداد الاضطراب. حمرة في صفرة،ويد قاسم في محاولتها المهدئة، تتقدم لترفع كتاباً مفتوحاً . يبدو أن إبراهيم كان يطالعه .

« مأساة الحلاج » . إنك تقرأ ما يوافق طبيعتك أيها الأخ . متى تنتهي المأساة؟ تصفح قاسم الكتاب ثم رده، وتناول الدفتر الأزرق المفتوح على آخر ورقة، كان يخطها إبراهيم ، ومر بعينيه على السطور المشطوبة.وخرج عن همهمته :

– أسمعني...

ورفع إبراهيم نظره لأول مرة ، نظرة استعطاف لم تجد لها استجابة :

– هيا أسمعني .

وانطلقت حشرجة تنبيء عن صوت سجين. لم يمارس طبيعته من قبل ، انطلق مضطرباً ، متعثراً ليتزن من بعد ، في عمق وتأثير :

« نهـايـة السندبـــاد »

يـا بـؤس السندبـــاد

والشــراع الممـــزق

ولـــوح النجـــاه

والزبـــرجد والذهـب

والفيافي وسرابات الحياه*
في الفـــج المغلـق*
يا أشـــلاء السندبـــاد
فـــي كـــــل واد
يــــا نـداء ...
....

ضاع قاسم مع النداء التائه ، مع النهاية التي لم تكتمل ، وشفتا إبراهيم ترتعشان في تأثر ، دون أن يرفع البصر :

– انته منها سريعاً ، سننشرها .

وفزع إبراهيم :

– تنشر ؟ !

وأكد قاسم ذلك في عزم .

ما من طريقة أخرى مناسبة ليخرج هذا السجين إلى النور ، ليدرك أنهليس عورة ولا إثماً ، ليكف عن تمزيق ذاته في العزلة ، لينظر حوله بقوة، ويحدق في النور ، لتنكشف هويته في النور...

وتراجع قاسم، يترك لأخيه فرصة لمتابعة خواطره ، فواجه والدته . كانت تقف على القرب منهما تتأمل موقفهما في رضى ظاهر وابتسامة . لا يدري أحد منذ متى وهي في موقفها، وقد زالت عنها غمامة الكآبة . وعندما فاجأها بالتفاتته ، عدلت من محياها، كأنها تحتج على ما هي فيه ، لتعود إلى كآبتها القديمة ، كأنما تنتظر استنكار قاسم وثورته عليها، ليصفعها ويركلها صائحاً : تبتسمين أيتها المجرمة ؟ اتجرئين ؟ !... كأنما فقدت حقها في البسمة، منذ تلك اللحظة اللعينه المجهولة ، منذ سنين...

خفضت بصرها ، وهي تتقدم بصينية الشاي إلى صدر البيت،وابتسم لها قاسم وهو يأخذ مجلسه . وأخذت مجلسها في تهيب،رغم بشاشة قاسم واستدار إبراهيم على كرسيه يرمق المجلس،ويتأمل الجدران والصور والفراش، كأنه يرى كل شيء لأول مرة. وقام يتناول كأسه قبل أن يمده إليه أحد ، وجلس قبالة قاسم ، وهو يتأمل الكأس ، كأن كل شيء جديد عنده ، وبدت حركاته رشيقة ، وهو يرتشف متلذذاً بالشاي :

ــ أنت ماهرة يا أماه...

نظرت إليه في امتنان . ماذا تقول؟

دمعة رضى تترقرق في أعماقها ، وميلاد بسمة .

ورد قاسم :

ــ أمنا تحسن كل شيء .

يا لوزن الكلمة ، أمنا . يا لسحرها الدافيء .

انتهى الشاي،فبادر إبراهيم في رضى ظاهر يحمل الصينية إلى المطبخ . كل شيء يولد من جديد... وقام قاسم إلى المكتب.أحس بنشاط فائض غاب عنه مدة ، لكنه لا يغري بالمطالعة رغم الجهد . أدرك قاسم ذلك،وهو يفتح أول كتاب ، لم يبدأه ولم ينهه منذ زمان .

وتتابعت الصفحات المتهرئة ... أفياشاً بيضاء بين أصابعه :
أب... أبكت...أبكتيت... والتقى نظره،بفتاة لم يتنبه إليها في لهفته... وعامل المكتبة يناوله المجلد :

ــ تغيرت كثيرا يا سي قاسم ؟

ويجيب في ارتباك :

ـ أنت . أوه... معذرة...

لا زال الكتاب عاجزاً عن استغراقه ، رغم فيض النشاط في كيانه ، عالم أقوى من الحروف يمثل على السطور بقوة ويخرجه إليه .

كيف يغلب الذكرى ، وبين جدران سوداء بيضاء ، يقاسي آلام الجحيم ، كان أضحى ملفا أصفر ؟ ويتساءل مرة أخرى عن المسؤول ؟ عن معنى الحياة ؟ أية سخافة نسميها القدر ، عندما نتملص من نتائج أفعالنا ؟ أية خدعة وأي عزاء رخيص في الوداعة ، والتسليم والحلم ، بسعادة النفس ؟ إننا لا نزيد على أن نفسح للعناكب الرابضة مجال التضخم ، وسوانحَ الإمتصاص ؟ ومع ذلك أصبح في عرف التاريخ ، كأن مسيرة البشر تتطلب حتماً شهداء وضحايا وقرابين ، وأن السير المتوازي لخلائق الكون ، بلا ضحية ولا شهيد لا يرضى رغبة التاريخ .

مرة أخرى ، يطغى عالم أقوى من الحروف على السطور . طوى الكتاب وارتخى قليلا إلى الوراء ، وظل يتابع دخان سيجارة يتلوى .

لنحرق لندمر ، في هذا تنفيس على كل حال .

وأقبلت من النافذة ، نسمة بحرية عبثت بالدخان وملأت خياشيمه... وعاد إلى الكتاب... أي كتاب... وانسحب مع أصابعه مجلد نيلي أزرق ، « الإبريز » . وانهال معه صخب العالم الخارجي بأجمعه ، هدية النوري. كان يجب أن يقرأه منذ زمان ، كأنه يراه لأول مرة ، ومثلت له الصفحات ، عرائس الجنة والقصور والرياش وألف صلاة على النبي قبيل الفجر والخوارق والمعجزات ، والمستنجد المستغيث في أقصى الأرض عندما ضاقت به ، تلفظ بالقطب ، فانفكت أغلاله ، ليجد نفسه في مسجد القدس .

والهنود أضاعوا الطريق . والعقل حجاب . أي ترياق للنفس وأي سلام. وصاحبته في ملف أصفر ، والوعدودي والكأس ، والحاج غنام والحاج سليمان

والعم ، وشبكة المنصوري ومحاضرات السلام ، وحلقات الوجد والتصديق وسؤال بلا رد :

– إنما أسألك عن أولادك... هل تريدهم لمثل هذا ؟

عرائس الإبريز عاجزة عن استغراقه ، وفيض النشاط يجب أن يذوب في ضجة الخارج . وقام كالملسوع . يجب أن يحدث شخصاً ، يجب أن يعانق... تهيأ للخروج . والمجلد النيلي يرمقه . ليرده إلى مكانه . مكانه ؟ واختطفه خارجاً . تسلمه الشارع في خطو كالعدو . تقاذفته الأزقة ، والغروب يفوح بروائح العطر ، في الفيلات الصغيرة المتراصة في الشارع الخلفي ، لمؤسسة النوري.

الشاوش العجوز عند الباب ، يده في الجلابة البيضاء الناصعة تداعب شيئاً ، لن يكون إلا سبحة ، وشفتاه تتمتمان بذكر هامس :

– النوري هنا ؟

وبدأ العجوز يفيق من سرحته :

– عفواً...

وأزاح الشاوش قاسماً بيده ، كأنما أخفى عنه الشمس ، وانفلت في اللحظة أربعة متعانقون إلى الداخل...

وابتسم الشاوش البواب ، في شبه يقظة :

– نعم موجود... ينتظر الجماعة... تفضل . وتمايلت أغصان الجميزة الضخمة وهي تحجب نوافذ الغرفات العليا ، في مسكن النوري.

ورد قاسم :

– لا .

ومد يده إلى الرجل بالكتاب :

– هذا للسيد .

وتشمم الرجل الكتاب، كأنه يستنشق عطراً، وبدت لقاسم أصابع الرجل وكأنما نالتها زرقة الكتاب ، ونظر إلى أصابعه هو أيضاً . وخطا مبتعداً باحثاً عن منديله... أحس بخطوه خفيفاً، كأنما كان يثقله حمل رصاص من قبل. وخشخش المنديل بين يديه . ورقة صغيرة عليها هاتف وموعد، مع الفقيه التاغي . منحة آخر الشهر... راتبه عند المنصوري ، أهمله منذ شهور ، أو نسيه . ما تزال الشبكة منصوبة ، وخيط إحسان أو تجارة ما يزال ممدوداً بقوة وإغراء ، وأحس بعيني ابن عمه سليمان ، تتطلعان إليه في صمت متسائل :

– متى نزور المنصوري ؟

وحدث نفسه مجيباً :

– المنصوري أيضاً يحتضر ، بالنسبة لي على الأقل .

وتناثرت قطع الورقة الممزقة . وإلى أين ؟ فيض النشاط يقف عند : « باب الحد » متردداً . كازبلانكا ؟ وهذيان الوعدودي والعربدة المدمرة لكل شيء ، وابتسامة الشقراء إغراء بالمزيد ، والكأس مدفن الفشل والأحزان ؟ لم يشعر بإغراء، وصار كأنه على موعد حتى توقف عند بائع الصحف ، لكنه لم يقرأ شيئاً ، عينه تمر على الصفحات المعلقة، في غير انتباه ولا شيء يجذبه وفيض النشاط ما زال سارياً .

انحرف يساراً مستسلماً لقدميه ، وفاحت من حوله رائحة الخبز الساخن، وأصوات البائعين تتناهى إليه عند بداية السويقة ، وجرته قدماه للزحام ، والخلائق تتدافع في الدرب الضيق الطويل ، والأرض المبتلة، وأصوات الركلام بومارشي... الرخا لله يا عباد الله... المليح يا للي بغا يربح...

تحرك في الزحام، والرؤوس تتحرك على مد البصر، في انحدار الدرب الطويل أمامه . وخيل إليه أنه يستأنس بشيء في الرؤوس والأكتاف .

وحدق . رأس عزوز وكتفـاه في الزحـام إلى جـانب رأس أشعث كأنـه الإدريسي . ودافع قاسم في الزحام يتحقق من صدق خياله ، واقترب منهما وأبعدته حركة الزحـام من جديد... أصوات المتسولين والرخا لله... والدرب ما يزال طويلا ، ينحدر... وينحدر .

مطابـــع دار الكتـــاب
الدار البيضاء

هذه الرواية

« ... حاولت أن ألخص ... في الحقيقة لا أقول مضمون ... وإنما موضوع هذه الرواية . على أن الذي أعجبني منها شخصياً إنما هو الصياغة الفنية وما تدل عليه من براعة لا شك فيها ، جعلتني وبعض من معي في اللجنة نعجب بهذه الرواية . وتظهر هذه البراعة خاصة في قدرة الكاتب على التحليل النفساني وعلى التغلغل في أغوار النفوس للكشف عما يجري فيها من دقيق الأحاسيس . وهذه الناحية هي عادة أضعف عنصر عندنا في الرواية العربية التي يكثر فيها . إما الوصف للبيئات أو للأحوال الجوية ، أو تكثر فيها ناحية السرد ... ويقل فيها هذا الاستبطان للنفوس ، لجلاء ما يختلج فيها ، وتصوير ذلك تصويراً دقيقاً يجعل من كائنات القصة ، كائنات حية يمكن للقاريء أن يتعاطف معها ويتجاوب ... »

من حديث للأستاذ توفيق بكار
عضو لجنة التحكيم في جائزة المغرب العربي
للرواية والمجموعة القصصية بتونس .

M'barek RABI

"LES BONS"

Roman

لوحة الغلاف للفنان ميلود

مطابع
دار الكتاب
الدار البيضاء

الثمن : 10 دراهم

مكتبة نوميديا 76
Telegram@ Numidia_Library